أوغسطين وآراؤه الفكرية

من خلال

كتابه الاعترافات

تأليف الدكتور

أحمد رفاعي عبد اللاه محمد الوقري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة :

الحمد لله الرحمن الذي علمنا القرآن، وفضلنا بالإيمان ورضي لنا ديناً خير الأديان، وأمرنا من خلاله بالفهم وإعمال الأذهان، ونبذ التقليد ونبه إلى اليقظة والإيمان، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله المرسل إلى الإنس والجان، سيد ولد آدم الأمين العدنان، نبي الرحمة ونبي الملحمة والعفو والغفران، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه الميامين الحسان.

ويعـــد،،،

فهذه دراسة بين يدي القارئ أردت من خلالها المشاركة في تبسيط الفهم لمرحلة من مراحل الفكر الفلسفي، متمثلة في علم من أعلام الفلسفة الدينية - القديس أوغسطين - كاشفا اللثام عن بعض من تراثه الإنساني، وهو ما كثر حوله الجدل، بين رافع له، وبين خافض منكر لكل عمل فكري جاء خارجا عن فكر اللاهوت، متوخيا أن يأتي العرض واضحا لغة ومعنى، مناقشا للآراء في حيادية تامة، موفقا بين مشكلها ومتنافرها متى لزم الأمر ذلك، والله أسأل أن يتقبل العمل ويتجاوز عما فيه من نقص، فالكمال لله وحده.

وقد جاءت الدراسة في :-

مقدمة وتمهيد وسبعة فصول وخاتمة.

أمَّا المقدمة فقد شملت منهج الدراسة ومحتوياتها.

أمَّا التمهيد فقد تحدثت فيه عن الحالة العامة في أوربا دينيا وسياسيا.

وأمَّا الفصل الأول فقد تضمن حياته ونشأته.

وأمَّا الفصل الثاني فقد احتوى نسكه وعبادته.

وأمَّا الفصل الثالث فقد شمل دراسته للفلسفة.

وأمَّا الفصل الرابع فعنوانه : أوغسطين والفكر المانوي.

وأمّا الفصل الخامس فجاء عنوانه : الألوهية في فكر أوغسطين.

وتحته مبحثان

المبحث الأول:

براهين وجود الله عند أوغسطين.

والمبحث الثاني:

صفات الله عند أوغسطين.

وأمّا الفصل السادس فعنوانه: النفس عند أوغسطين.

وأمّا الفصل السابع فعنوانه: العالم عند أوغسطين.

والله من وراء القصد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتـــور

أحمد رفاعي عبد اللاه محمد الوقدي

تمهيد:

كانت هيمنة الكنيسة على الحياة الفكرية والتعليمية في غرب أوربا في العصور الوسطى من العوامل الأساسية التي أدت إلى عدم ترك مجال للدراسات العملية والعلوم التجريبية، لأن العقيدة المسيحية -كما قال المعاصرون- تقوم على أساس الإيمان في حين يعتمد العلم على التعقل.(١)

هذا إلى أن إصرار الكنيسة على توجيه أنظار المعاصرين نحو الحياة الباطنية كان من شأنه أن أعمى أنظارهم عن العالم الطبيعي المحيط بهم.(٢)

ومن ذلك أبدى القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م) دهشته من أن الناس يذهبون بتفكيرهم بعيداً للتأمل في ارتفاع الجبال، أو دراسة مدارات الكواكب، ويهملون التأمل في ذاتهم أو في الآخرة.

بل إن القديس أوغسطين نفسه يهزأ من فكرة كروية الأرض.

وأدى هذا الاتجاه إلى انحطاط التفكير العلمي في الشطر الأول من العصور الوسطى، فانتشرت الخرافات والاعتقادات في المعجزات بين أهالي غرب أوروبا.

فالكنيسة قالت: إن المرض من الشياطين ويمكن مداواته بإقامة القداس والتمسح بالصلبان، وأثبت الطب (العلم المادي) خطأ ذلك، وقالت إن الأرض مسطحة، وأثبت الفلك (العلم المادي) أنها كروية، فأصبح الإنسان العادي لا يستطيع أن يعتنق المسيحية إلا إذا ألغى عقله،

((١)) وهذا ما أدى بالأكويني إلى أن يعتقد، مقتفيا خطى أرسطو في أفكاره عن الميتافيزيقا ومعارضا لسلفه أوغسطين، ويقول:
بأن العقل يدرك ما يخص الفرد وليس ما هو عام.
كذلك فالحقيقة عن الرب لا تطرح على الإنسان كيقين قد أنزل عن طريق الإلهام (الوحي) ووهب، بل ينبغي الوصول إليها بالفهم غير المباشر والإحالة إلى النتائج المترتبة على الحضور الرباني أي ما خلقه.
فالرب يمكن التعرف عليه والبرهنة على كينونته بالاستناد على معرفة ابسط الحقائق.
أنظر، عدنان المبارك، تأملات الأكويني، القومية العراقية للطباعة والنشر،ص٦٥.

(٢) د. إبراهيم صبحي، مصر في عهد الرومان.
وأنظر موسوعة الحضارة المصرية، المجلد الثاني، العصر اليوناني، والروماني، والعصر الإسلامي، ألفه نخبة من العلماء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، الموزع: مكتبة مصر بالفجالة، ص ٢١٩.

فالكنيسة عارضت بعض الحقائق العلمية المادية نتيجة تحريف التعاليم المسيحية[1].

حتى قضى السحر على البقية الباقية من المعرفة العلمية عند الأوربيين، ومهما يقال من أن غرب أوربا شهد نهضة في أوائل القرن التاسع -على أيام شارلمان[2]- فإن هذه النهضة جاءت مفتعلة، وليدة إرادة حاكم أحد، أراد أن تكون هناك نهضة فكانت هناك نهضة[3].

من هذا ما ذهب إليه فشر في قوله:

"إن حكمة الكنيسة المسيحية هدت آباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا معه منعاً من قديم العادات والتقاليد والمعتقدات؛ بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط وتطويع ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها"[4].

لذلك جاءت هذه النهضة -التي أطلق عليها اسم النهضة الكارولنجية نسبة إلى البيت الذي ينتمي إليه شارلمان- ضعيفة الجذور، ضيقة الأفق، قصيرة العمر، سريعة الزوال.

ولم يلبث أن خَبَأ نورها بسرعة ليعود الظلام مرة أخرى يخيم على الغرب الأوربي حتى القرن الحادي عشر.

نلاحظ هنا:- أنه إذا كانت فلسفة العصور الوسطى تبدأ تحديدا في القرن التاسع وتنتهي على وجه التقريب في القرن الرابع عشر - على ما قال به بعض المؤرخين اللذين يرون ذلك وهم يروا الفصل

---

(١) الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، " الإلحاد " أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها، ص ١٠.

(٢) شارلمان أو شارل الكبير، ملك الفرنجة (٧٦٨ - ٨١٤م)، أحد أشهر القادة العسكريين في العصور الوسطى، احتل جزءاً كبيراً من أوربا الغربية ووحدها في إمبراطورية عظيمة (٨٠٠ - ٨١٤)، بعث مرة أخرى الفكر الثقافي والسياسي في أوربا، ولقد وضعت أنشطته حجر الأساس للنهضة الأوروبية التي ازدهرت في أواخر العصور الوسطى (٤٧٦ - ١٤٥٣م)، ولقد أقام علاقات اقتصادية جيدة مع الشرقيين، وشارلمان هو الإمبراطور الذي أهداه هارون الرشيد الساعة الدقاقه.تاريخ أوربا، ج١ ،ص٢١٥.

(٣) هـ. أ. ل. فيشر، تاريخ أوروبا - العصور الوسطى، نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة و السيد العريني، ص٥٦، الجزء الأول، طبعة ٦، ١٩٧٦م، جمعية الحديث بالاشتراك مع دار المعارف المصرية.

(٤) تاريخ أوروبا العصور الوسطى: ٨٠/١.

بين فلسفة الآباء في فترة مستقلة عن العصور الوسطى - حيث يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي:

"الفكر الفلسفي في العصور الوسطى الأوربية، الذي يبدأ حقا من يوحنا الأريجيني في القرن التاسع الميلادي، وينتهي في القرن الرابع عشر عند وليم أوكام".[1]

يقول الدكتور محمد حسانين:-

"فلسفة العصور الوسطى تبدأ تحديدا في القران التاسع وتنتهي على وجه التقريب في القرن الرابع عشر"[2]

فان القديس... أوغسطين لا يعد فيلسوفا من فلاسفة العصور الوسطى، -على رأيهم ونحن نرى خلافهم- إذ هو ينتمي طبقا للتحديد السابق، إلى ما يسمى بعصر الآباء، وهو عصر حاول فيه أباء الكنيسة الدفاع عن الدين المسيحي ضد هجمات فلاسفة اليونان المعاصرين لهذه الفترة، أي فلاسفة الأفلاطونية المحدثة.

هذا القول مجانب للحقيقة حيث إن الكنيسة أخذت بغالبية ما توصلت إليه الفلسفة اليونانية من أراء ونظريات، بالأخص ما قال به أرسطو من نظريات في الفلك وخلافه.

والواقع أن شخصية القديس أوغسطين تعد أهم شخصيات عصر الآباء، لان فلسفته أثرت بعمق في الفلسفة المسيحية التي جاءت من بعده.

---

(١) د/ عبد الرحمن بدوي، فلسفة القرون الوسطى، القاهرة١٩٤٢، ص ١١.
(٢) د/ محمد حسانين، فلسفة العلم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص ٤٣.

حياته ونشأته :

وُلد أورليوس أوغسطين في ٣٥٤م بطاغستة[١] من أمّ مسيحيّة وأب وثنيّ. درس في مادورة ثمّ في قرطاج[٢].

والواقع أن شخصية أوغسطين كانت تحمل في طياتها تناقضا يتنازعه قطبان أساسيان من مكونات الشخصية هما:

- رهافة الوجدان والعاطفة من ناحية.
- والرغبة الشديدة في انتهاب شهوات الحياة وملذاتها من أخرى.

ولهذا كانت ذاته مسرحا لهذا الصراع بين عاطفته وشهواته، وحاول جهده آن يوفق في ما بينهما وجاء هذا التوفيق في نهاية الأمر، بالقضاء على أحد هذين القضبين مبقيا منهما على قطب العاطفة القوية والإحساس الجياش.

حيث تحمّس لدراسة الفلسفة، ثمّ درّس فيها، وتأثر بالمانوية[٣] التي كانت آنذاك في أوج تأثيرها وهي الفترة التي شغلته فيها مشكلة الشر وحاول حلها كما تضم ثقافته أيضا الثقافة الرومانية اللاتينية وحاول أوغسطين في بحثه عن الحقيقة أن يوظف هذه الثقافات المتباينة فعلى حين بدت أمه المسيحية مذهبا في الخطيئة والمحبة، تدعم فكرة الكنسية الكلية الأبدية، ثم بدت له أخيرا مذهبا في الخلاص يحاول أن... يساعد روح الإنسان حتى يصل إلى أعلى القيم، قيمة الإنسان في ملكوت

---

(١) سوق أهراس بشرق الجزائر، ياقوت، معجم البلدان ١٨٧/٢.

(٢) تقع مدينة قرطاج في بلاد تونس بالقرب من مدينة تونس الحاضرة، أسسها الفينيقيون وأصبحت مركز إمبراطورية كبيرة حكمت شواطئ المغرب العربي وأسبانيا حتى سقوطها في حروب مع الرومان. معجم البلدان ١٩٠/٢.

(٣) سيأتي تعريفها تفصيلاً في موضع آخر من البحث.

الله، فان الثقافة اليونانية بدت له مثلا للعقلانية والحكمة تلك التي سوف تلعب دورا واضحا في حياته الفكرية وكما قلت أنفا فإنّ انشغاله الفكري بمسالة الشر ونشأة العالم أدى به إلى اعتناق المانوية التي تثبت كل شيء عن طريق العقل، أما الثقافة الرومانية فقد استهوته فيها فكرة الإمبراطورية.

ثمّ غادرها في سنّ ٢٨ للتّدريس في روما. ومنها سافر إلى ميلانو وعرف أسقفها الشّهير أمبروسيوس[١] الذي عمّده في ٣٨٧م بعد تحوّله إلى العقيدة الكاثوليكيّة في ٣٨٦م ومنها عاد إلى إفريقية، حيث اشتغل مساعداً لأسقفّ هبّونة (عنّابة) لتقدّمه في السّنّ وذلك في الفترة من عام ٣٩١م إلى موته في ٣٩٦م ثم عيّن آنذاك خلفاً له، وبقي أسقفاً لها حتّى موته في عام ٤٣٠م وجيش الوندال يحاصرها.

كما يمكننا أن نقول أنه من كتّاب شمال إفريقية اللاّتين، ومن آباء الكنيسة والمدافعين عن عقيدتها ضدّ المذاهب الأخرى وضدّ أصحاب البدع كمنتانوس[٢] وأبوليناريوس[٣] وبيلاجيوس[٤].

كتب "الاعترافات" في بداية ولايته الأسقفيّة عام ٣٩٧م ويعتبر أوّل سيرة ذاتيّة مركّزة على الجانب الرّوحيّ ويعدّ مع "مدينة الله" اللاّحق أشهر كتبه.

أتى الكتاب في شكل اعتراف موجّه إلى الله يستعيد فيه ذكريات حياته منذ الطفولة وتطوّره الفكريّ طالباً من الله مغفرة خطاياه، وشاكراً نعمته التي قادته من الضّلال إلى الإيمان.

---

(١) أمبروسيوس: أسقف ميلان، ولد في روما عام ٣٤٠م لأسرة كبيرة، فلقد كان والده حاكماً لبلاد الغال (فرنسا) في عهد قسطنطين الصغير، درس أمبروسيوس وأخيه الأكبر ساتيروس اللغة اليونانية والقانون الروماني والبيان والبلاغة، أما كتاباته وعظاته فتضم كتابات عقائدية وأخلاقية ورسائل، ومن كتاباته الدينية كتاب عن الثالوث المقدس، وتوجد له ٩١ رسالة مابين أخلاقية وعقائدية أهمها ما دار عن الصداقة. أنظر: مجموعة من الأساقفة، تاريخ الآباء، ١٥٤/١

(٢) منتانوس: مؤسس المونتانية، نادى بأن الوحي لا ينقطع بل قال عن نفسه أن استمرارية الوحي في شخصه. نفس المرجع، ٦٥/٣

(٣) أبوليناريوس: (٣١٠ - ٣٩٠م) أبو الأبوليناريون، حارب مذهب أريوس نافياً وجود نفس إنسانية عاقلة في المسيح. نفس المرجع، ٩٥/١.

(٤) بيلاجيوس: الراهب البريطاني الأيرلندي الأصل الذي كرز في روما في الفترة ما بين (٤٠٠ - ٤١٠م)، ولقد نادى بأن خطيئة آدم لا تورث، زار قرطاجة وأفريقية وفلسطين،وكان له أتباع كثيرين سموا بالبلاجيون. نفس المرجع، ٩٠/١.

وفي الفصول الأربع الأخيرات، يعالج قضايا فلسفيّة ولاهوتيّة كطبيعة كلام الله و الزّمان والذاكرة والخلق وتأويل الكتاب المقدّس.

ويبدو أوغسطين في اعترافاته صادقاً وصريحاً لا يحاول تبرير نفسه ولوم الآخرين كما يفعل روسّو[1] أو شاتوبريان.

وهو شديد الصّرامة في محاسبة ذاته، فقد تبدو لنا بعض الذّنوب التي يؤاخذ بها نفسه بشدّة، ويريد من خلالها إظهار الخطيئة في الإنسان، كالميل إلى اللّعب في صباه أو سرقة الفواكه من بستان جاره في شبابه من اللّمم.

وتظهر لنا حياة أوغسطين في بدايتها سلسلة من الإخفاقات لأنّه ككلّ إنسان يحمل في ذاته الخطيئة، ويلتمس اللّذّة في ذاته وفي الآخرين وفي الأشياء بدلاً من الله.

فمنذ الصّغر نرى أخطاءه، بل خطاياه في اللّعب، في الدّراسة، في علاقاته الجنسيّة، في السّرقة المجّانيّة، في اهتمامه بالتّنجيم، بل في الصّداقة، لأنّها ليست صداقة في الله، وفي اهتماماته العلميّة والفلسفيّة والجماليّة، إذ كان من المفروض أن يضعه كتاب (هرتنسيوس) لشيشرون[2] على الطّريق إلى الحقيقة، لكنّه توجّه إلى المانويّة ثمّ إلى فلسفة الشّكّ الأكاديميّة؛ كذلك لم تقده دراسته الجماليّة إلى معرفة السّنا الأسنى والبهاء الأعظم.

ومن خلال اعترافاته، يؤكد أن العناية الإلهيّة تحيط به باستمرار وما انفكّ الله يقوده إليه: بموت صديقه، بحلم والدته، بكشفه لأغاليط المانويّة عن طريق فاوستوس، بقيادته إلى أمبروسيوس، بفتح بصيرته على ضلال التّنجيم، بإطلاعه على بعض كتب الأفلاطونيّين المحدثين،

---

(١) جان جاك روسو: شخصية مثيرة للإعجاب، احتل بأفكاره وكتاباته مكانة رفيعة بين فلاسفة القرن الثامن عشر، كان يدعو إلى حياة البساطة والتواضع وكان يحلم بإنشاء عالم جديد، انحدر من عائلة فرنسية الأصل تدين بالبروتستانتية، خالط المجتمع الراقي، وفي عام ١٧٤٩ أتيحت له الفرصة ليعبر عن أفكاره من خلال كتابه (خطاب حول العلوم والفنون)، ومن بعده توالت أعماله التي كان من أهمها (الاعترافات) الشهيرة (١٧٨٢ـ ١٧٨٩) والتي منعت قرأتها بشكل علني. تاريخ الفلسفة الغربية، ص ١١٩.

(٢) شيشرون: (١٠٦ - ٤٣ق.م) سياسي وخطيب وأديب روماني مشهور بخطبه وسلاسة أسلوبه، له خطب ضد كاتلينا، وحوارات في الصداقة وفي الشيخوخة وفي الواجبات (في قالب رسالة). تاريخ الآباء، ٨٨/٢.

بقيادته إلى سمبلقيانوس[1]، بإطلاعه على قصّة الرّاهب أنطونيوس وقصص شبيهة، يعترف أن الله هو الذي أنار قلبه، وهو الذي أوجد فيه القانون الأخلاقيّ ونور الحقّ في الأصل.

نجد هنا فكرة النّعمة الإلهيّة[2]، ورفض الحريّة الإنسانيّة بالمعنى المطلق، لكن مع تأكيد مسؤوليّة الإنسان، فالشرّ من نفسه، ومن إرادته المنحرفة التي تزيّن له الشّهوة -شهوة الجسد والعين وفخر الحياة- فتصير عادة تتحكم فيه، بينما الخير من الله وبإحسانه.

وهكذا فليست اعترافاته -إذن- استنباطاً ودراسة في النّفس الإنسانيّة بل هي إعترافٌ بخطايا الإنسان ونعمة الله معاً.

أوغسطين يقارن باستمرار بين الله والإنسان:

فالله هو: الحقّ والخير والجمال والأبديّة.[3]

والإنسان هو: الضّلال والشّرّ والدّمامة والفناء.

والإنسان لا يجد في نفسه سوى العناء، أمّا الرّاحة الحقيقيّة ففي الله وحده.

ويذكّرنا هذا التّحوّل بعد بحثٍ مضنٍ وأزمة شكّ حادّة ببسكال مثلاً، أو عند المسلمين بالغزاليّ[4] الذي روى لنا هو الآخر في "المنقذ

---

(١) سمبلقيانوس: (٣٣٩ - ٤٠١م) معلم أمبروسيوس، ولقد خلفه كأسقف لميلانو عام ٣٩٧م. نفس المرجع، ١٨/٢.

(٢) وهي في نظر أوغسطين طريق الهداية التي يفتحها الله للعبد كي يكون عبدا صالحا وهو ما يرويه خلال الاعترافات عن نفسه.

(٣) وعن الرب كان يقول: بأن فكرته ليست مجرد فكرة.
فهو قبل كل شيء الوجود القائم والأكمل.
كذلك فهو خالق كل وجود. والحقيقة عن الوجود نتعرف عليها وليس على أساس النتائج أي الحقائق الكائنة بل على أساس سببي: طالما أن سبب كل شيء هو الرب ككمال غير منته فلابد أن ما خلقه يحمل صفات خالقه، ف(الكمال يخلق الكمال، و اللاكمال يخلق مثيله). أنظر، عدنان المبارك، القلق الإلهي مبعثه سر الواقع، ص١١٢.

(٤) أبو حامد الغزالي: (١٠٥٨- ١١١١) متكلم وفيلسوف ومصلح ديني مسلم، يعتبر أحد أعظم المفكرين في تاريخ الإسلام، آمن بأن طرق الصوفية هي الطريق المؤدية إلى المعرفة اليقينية والسعادة الحق. كان لآرائه أثر كبير في تطور الفكر العربي وفي اللاهوت المسيحي خلال القرون الوسطى أيضاً. أشهر كتبه "إحياء علوم الدين"، و"تهافت الفلاسفة" أنظر، مقدمة سليمان دنيا على التهافت، طبعة دار المعارف، ص٨.

من الضلال" : تعطشه إلى درك حقائق الأمور، وتردده بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة، وحيرته بين شتى مذاهب عصره وأزمة الشك التي خرج منها بنور قذفه الله في صدره.

كذلك يمكن اعتبار القديس أوغسطين من صوفية المسيحية، وما ذكره من أحوال ومقامات له نوع من ضروب تنسك الرهبان السالكين، وكذلك موقفه من حرية الاختيار أو طبيعة كلام الله والعلاقة بين ذاته وصفاته، ليجعله من أصحاب المذاهب المدافعة عن العقيدة لذا سوف يكون كتاب "الاعترافات" هو المورد الذي من خلاله نتعرف على فكر أوغسطين وفلسفته.

وما يهمنا هنا أن القديس أوغسطين في انتقاله بين هذه المذاهب من أجل تفسير الحقيقة، كانت تتنازعه الشكوك، فلم يقنع منذ البداية بمذهب ما وان كانت نزعته الوجدانية التي تواءمت مع روح المسيحية وجوهرها، وكذا مذهب أفلاطون بما فيه من مثالية عقليه بقيا مع أوغسطين حتى النهاية، و منهما معا تشكلت فلسفته، فحاول أن يوفق بين الدين المسيحي والعقلانية الأفلاطونية وهو ما عرف بالتوفيق بين النقل والعقل أي الإيمان والعقل.

وأوغسطين الذي قرر عدم استثناء العقل كأداة معرفيه (أسماه ب "عيون النفس") بل وجده عنصرا إلهيا وفكرا داخليا، قد اقتفى هنا خطوات أفلاطون وليس تلميذه أرسطو.

كذلك كان فكره أكثر خصبا في المجال المعرفي، ولم يأخذ بطريقة الإحالة إلى الحقائق الخارجية كسند للحجة النظرية.
فقد جمع العنصر العقلي بالآخر الغيبي.

والأكثر من ذلك هناك محاولات بينة في كتاباته، لعقلنة الإيمان وتأسيس برهان عقلي على وجود الرب والنفس.
وكان يعتقد بأن الحقيقة هي خالدة وموضوعية ومستقلة عن أي شيء مادي مهما كانت حقائق الطبيعة زائلة، وحتى لو كف كل شيء عن الوجود وقبلنا بأن لا وجود الآن للحقيقة أو أن كل شيء هو محض خطأ.وبرهن على أن الحقيقة، خلافا للشيء، لا يمكن أن تزول. إنها معرفة توجد خارج العقل.

وهنا يصل أوغسطين إلى حقيقته المعروفة:

طالما أن الحقيقة أبدية. فلابد أن يكون العقل المدرك لها (أي العقل الإلهي) كائنا أيضا، وكل ما هو سرمدي لا وجود له إلا في الرب ومن خلاله.

تنسكه وعبادته:

يبدأ أوغسطين حياته الدينية بداية صوفية خالصة،[1] حيث يشق الطريق من أوله بالتأملات في ملكوت الله وفي الكون المحيط، وتدرج في سلم الزهد حتى يصل به الحال في النهاية إلى الكهنوت، ويكون رجلا من رجال الدين والفلسفة المسيحية البارزين والذين تركوا للبشرية عامة تراث مازال حتى الآن مصدر إلهام للكثير من الدارسين والباحثين في أمور شتى.

الجدير بالذكر:

أنني سوف أعتمد خلال دراستي هذه على كتاب ﴿الاعترافات﴾ لأوغسطين الذي هو بمثابة السيرة الذاتية له، وبالذات على الترجمة العربية التي أنجزها عمار الجلاصي، بيروت، ٢٠٠١.

أولاً:

تسبيحه وتعظيمه لله تعالى:

يقول أوغسطين: "عظيم أنت يا ربّ، ومسبّح جداً وليس لعظمتك استقصاء، ولا لعلمك إحصاء".[2]

---

(١) ومن السهل أن نشطر رغبته إلى اثنتين:
الإلهي. والنفس.
فمن المؤكد انه عرف الرب ألا أنه أراد ، كما يبدو، معرفة المزيد.

(٢) أولاً:
والتأمل في أفعال الله ضروري إلى معرفته، وهذا أولاً لكي ندهش من الحكمة التي أوجد الله كل شيء بها ونتذكرها، جاء في الكتاب المقدس:

"ما أعظم أعمالك يا رب، لقد صنعت جميعها بالحكمة" (مزمور ١٠٤: ٢٤). وجاء في القرآن الكريم:
(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (سورة النمل ٢٧: ٨٨).

وثانياً:

إن التأمل في أفعال الله يقودنا إلى التعجب من قدرة الله العُليا وبالتالي يلهمنا تقوى الله. فإن الفاعل أقوى مما يفعل.

ولذلك قيل خاصة للفلاسفة:وجاء في الكتاب المقدس
"وإن دهشوا من قدرتها وفاعليتها فليفهموا منها كم مكونها أقدر منها" (الحكمة ١٣:٤).
وجاء أيضا:
"فمنذ خلق العالم لا يزال ما لا يظهر من صفاته، أي قدرته الأزلية وألوهيته، ظاهراً للبصائر في مخلوقاته" (إلى أهل رومية ١: ٢٠).
وجاء في القرآن الكريم:
(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (سورة السجدة ٣٢: ٤)،
فالله هنا يملك ويعلو على كل ما صنعه.
ومن هذا التعجب تنتج تقوى الله، فإنما قيل:
"لا نظير لك يا رب، عظيم أنت وعظيم اسمك في الجبروت، من لا يخشاك يا ملك الأمم؟" (أرميا ١٠: ٦).
وبعد وصفه عجائب الخليقة نسمع القرآن الكريم يصف نتيجة التأمل في الخلق:
(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (سورة فاطر ٣٥: ٢٨).

وثالثاً:

إن التأمل في مخلوقات الله هذا يقود أنفس الناس إلى محبة خيرية الله.
إذا كانت خيرية المخلوقات وجمالها وملذاتها تجلب أنفس الناس هكذا، فخيرية الله، التي تبزّ الخير الجزئي المنتشر في المخلوقات، ستوقد أنفس الناس بمحبته وستجلبها إليه.
فإذاً قيل في الكتاب المقدس:
"لأنك يا رب بصنعك فرّحتني، ولأعمال يديك أهلل" (مزمور ٩٢: ٥).
فقد جاء في القرآن الكريم:
(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (سورة القصص ٢٨: ٦٨).

وأخيراً:

التأمل في أعمال الله تمنح الناس مشابهة ما لكمال الله.
فإن العقل بمساعدة الإيمان بالوحي الإلهي يتعود أن يرى شبه الخالق في المخلوق وكذلك يشترك بنوع ما في حكمة الله. لذا جاء في الكتاب المقدس:
"ونحن جميعاً نعكس صورة مجد الرب بوجوه مكشوفة كما في مرآة، فنتحول إلى تلك الصورة، ونزداد مجداً على مجد" (٢ كورنتس ٣: ١٨).
وجاء في القرآن الكريم:
(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) (سورة الأنعام ٦: ١٠٤).

فتبين

والإنسان[1] يريد أن يسبّحك وهو جزء مهين من خلقك، الإنسان الذي يحمل في كلّ مكان فناءه، ويحمل حيثما كان أمارة خطيئته والشّهادة بأنّك "تقاوم المتكبّرين"[2].

ويؤخذ من النص:

أن أوغسطين أقر إقراراً كاملاً بعدم تناهي عظمة الله -تعالى- وأن علم الله غير متناه، ولم يكتف بهذا بل قرر من خلال النص أن الله -تعالى- باق وأن كل ما دونه فانٍ.

ويواصل أوغسطين التأمل والإقرار بالعبودية فيقول:

أ- " أعترف لك يا ربّ السّماء والأرض وأسبّحك على بدء محياي وطفولتي التي لا أذكر، فقد منحتَ الإنسان أن يتخيّلها من خلال مشاهدة الآخرين، ويصدّق كذلك أموراً كثيرة عن نفسه معتمداً على أقوال مجرّد نسوة. إذاك كنتُ، وكنت كذلك أحيا.

ب- وأبحث منذ أواخر طفولتي عن علامات أخبر بها الآخرين بمشاعري.

ج- من أين أتى ذلك الكائن الحيّ إن لم يأت منك يا ربّ؟ وهل لأيّ أن يكون صانع ذاته؟ وهل من مَعين استُمدّ هذا الوجود الذي يسري فينا من كينونة وحياة سوى خلقك لنا يا ربّ.[1]

إذاً أن التأمل في مخلوقات الله له دور في بناء الإيمان، كما وُرد في الكتاب المقدس: "سأذكر الآن بأعمال الرب وأخبر بما رأيت. بأقوال الرب كانت أعماله والخليقة تطيع مشيئته" (يشوع بن سيرخ ٤٢: ١٥).

وجاء في القرآن الكريم:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (سورة البقرة ٢: ١٦٤).

(١) الإنسان: المقصود أوغسطين، لكن لا في فرديّته بل كإنسان. ونرى أنّ أوغسطين يستهلّ اعترافاته بالدّعاء ومخاطبة الله مباشرة وأنّه يقصد لا الاعتراف بأخطائه فقط بل كذلك تمجيد الله، في معنى قريب ممّا جاء في دعاء للرّسول -صلى الله عليه وسلم-: " أبوء لك بذنبي وأبوء لك بنعمتك ".

وفناؤه أي وضعه ككائن معدّ للموت هو في المسيحيّة ثمرة الخطيئة الأولى. وتذكر فكرة راحة النفس في الله، قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ). سورة الرعد الآية:٢٨.

(٢) الاعترافات، الكتاب الأول، ١/١.

د- أنت الذي لا فرق فيك بين الكينونة والحياة -أي حياته عين ذاته- فالكينونة السّنيا والحياة السّنيا حقيقة واحدة.[٢] أنت الكائن الأسنى الذي لا تتغيّر:لا نهاية فيك لليوم الحاضر، ومع ذلك ففيك ينتهي، فكلّ ذلك كائن فيك، وما له من سبل يمرّ عبرها لو لم تكن أنت تحويه.

هـ- "سنوك -جمع سنين أي أنه أبدي ولا يفنى زمانه- لا تفنى" فهي يوم حاضر متواصل. كم من أيّامنا وأيّام آبائنا مرّت في يومك الحاضر هذا وتلقّت منه أقيستها ووُجدت فيه بنحو ما وستمرّ فيه أيّام أخر وتتلقّى منه أقيستها ونمط وجودها.

و- لكنّك باق أنت أنت، وكلّ ما يحمل الغد وما مضى به الأمس وكذلك ما تفعل حاضراً فعلتَه في يومك الحاضر هذا.

ز- وكيف سأدعو إلهي[٣]، إلهي وربّي، وأنا في ذاتي أدعوه حين أدعوه؟

---

(١) فلأن الله هو الخير المطلق وعلة الخير في كل ما سواه، إنه العلة لكون أي شيء آخر مطلوباً كغاية.أنظر الاعترافات،٧/٤
وكما كل علة ثانوية تعمل بتأثير العلة الفاعلة الأولى، كذلك كل ما يشترك في خيرية الله يجد تمام كماله في اتجاهه لخير الله وفي خدمة مقاصده مباشرة أو غير مباشرة.
جاء في الكتاب المقدس: "الرب صنع كل شيء لغايته"(الأمثال ١٦: ٤).
(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (سورة البقرة ٢: ١٥٦).
(٢) إن معرفة الله هي هدف كل مخلوق عاقل. وإن الله هو الموجود المعقول الأكمل للعقل المخلوق، وفي ميدان الحق إننا نطلب طبيعياً أن نصل حتى إلى المبدأ الأول للكل، وإن هذه المعرفة هي المعرفة العليا، كماجاء في الكتاب المقدس:
"طوبى لأطهار القلوب فإنهم يشاهدون الله" (متى ٥: ٨).
وجاء في القرآن الكريم:
(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)(سورة القيامة ٢٢-٢٣).
(٣) أن هدف الدعاء ليس تغيير ما قدّر الله، بل على ما قدّر الله أن يعطيه بالدعاء.
فكذلك قال النص: "إن الله يصنع ما يرضي الذين يتقونه، يسمع صراخهم ويخلصهم" (مزمور ١٤٥: ١٩).
قال الله تعالى:
(فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (سورة البقرة ١٨٦).
وأحياناً إن الله لا يستجيب الأدعية.
ويمكن أن يحدث هذا لأن الداعي طلب شيئاً ليس في الحقيقة خيراً له، ولو لم يشعر بهذا، كما قيل:
"إنكما لا تعلمان ما تسألان" (متى ٢٠:٢٢).
"تسألون ولا تنالون لأنكم لا تُحسنون السؤال لرغبتكن في الإنفاق على أهوائكم" (يعقوب ٤: ٣).

ح- وفي أيّ محلّ فيّ يأتي فيّ إلهي؟ أين يأتي فيّ الله "الذي صنع السّماء والأرض؟ أفيّ اللهمّ ربّي محلّ يسعك؟ وهل تسعك السّماء والأرض اللتان خلقتهما وفيهما خلقتني؟

ي- أم لأنّ لا كائن يكون بدونك ما من كائن إلاّ وأنت فيه؟"[1]

ويؤخذ من النص:

فينبغي أن يكون مثل قول الله تعالى في القرآن الكريم:
(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) (سورة الإسراء ١٧: ٥٧).
أو لا يسمع لأن رغبة الداعي قد فترت ووقف عن الدعاء، ولذلك نسمع عن "وجوب المداومة على الصلاة من غير ملل" (لوقا ١٨: ١).
أو لا يسمع لأن الشخص لم يدع بالتواضع والورع والإيمان، كما قيل إنه "لقلة إيمانكم" (متى ١٧: ٢٠).
وهو ما أكده القرآن الكريم:
(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (سورة الأنفال ٢).
أو لا يسمع لأن الشخص قد دعا بقطيعة رحم، أو لأنه دعا لأجل الضرر بشخص آخر، كما نسمع: "إن أكثرتم من الصلاة لا أستمع لكم لأن أيديكم مملوءة من الدماء" (أشعيا ١: ١٥)
كما جاء في القرآن الكريم:
(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (سورة الأعراف ٥٥).
(١) وإن كل الأشياء تطلب مشابهة الله، لأن الكمال الذي تتحصل عليه بأعمالها إنه مشاركة في خير الله ووجوده وكماله.
فإن الخلائق تقتدي بالخير الإلهي، ولكن لا يمكنها أن تصبح الخير المطلق، فإن الله وحده يتصف بهذا.
ولا يمكن أن يكون لها كل الكمالات التي يمتلكها الله بل إن لكل واحد منها كمال خاص يشابه كمال الله بشكل معين ما.
فإن الجواهر الروحية تقتدي بالله بالنحو الأكمل، ثم تقتد به الجواهر المادية بمستوى أسفل.
لأن الخير هو الاتجاه نحو هدف، وإن الشيء المتجه إلى هدف خير هو خير ولو لم يصل بعد إلى الهدف.
وقوله هنا: بأن الله في كلّ كائن:
يذكر بقول الحلاّج:

وأيّ الأرض تخلو منك حتى تعالوا يطلبونك في السّماء.
تراهم ينظرون إليك جهـــراً وهم لا يبصرون من العماء.

لكن لا يعني الحلوليّة أو وحدة الوجود التي وجدت عند ابن عربي.

أ- يواصل بدايات تنسكه وتأمله في الخلق مع الاعتراف بنعم الله -تعالى- عليه وأهمها وأجلها بعد معرفته لخالقه هي نعمة وجوده في هذا الكون.

ب- إقراره بالعجز والاحتياج؛ لأنه مفتقر إلى من يبثه مشاعره التي بدأت تظهر مع اكتمال مرحلة الشباب.

ج- إقراره للخالق بنعمة الخلق وشكر على أنه من خلق الله -تعالى-.

يدافع هنا عن زعم بعض النظريات الهدامة التي كانت تسود في ذلك الوقت مثل القول: بالخلق صدفة، أو أن الإنسان خالق لنفسه ومن الملاحظ هنا أن شأنه شأن رجال الدين عامة في التصدي للنظريات التي كانت تريد أن تقوض من دعائم الدين عملاً بما تعلموه من كتبهم المقدسة، كما فعل المتكلمون في الإسلام في دفاعهم عن القول: بالخلق صدفة عملاً بما جاء في قول الحق -تعالى- :﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (١).

د- يتحدث عن الكنه والحياة بالنسبة لله -تعالى- ويثبت في اعتراف رجل دين أنه لا فرق بين كنه الله -تعالى- وبين حياته، ويعترف في صورة تنزيهية أن إلهه لا يعتريه التغير ولا يحل فيه الزمان ولا الحوادث(٢).

هـ- الله في وجوده لا يقاس بالزمان حيث أن وجوده لا يفنى ليحصره الزمان.

---

(١) سورة الطور الآية ٣٥.

(٢) نظرية القديس أوغسطين أن كل معرفتنا تأتي من الحق الأول بطريق الإشراق، فيجب أن نفهمها بالمعنى أن كل معرفتنا هي شبه معرفة الله السرمدية، ولا أن نعرف المحسوسات بمشاهدة ذات الله.

فإن الكتاب المقدس يقول: "لا يراني الإنسان ويحيا" (الخروج ٣٣: ٢٠).

ويقول أيضا: "فنحن اليوم نرى في مرآة رؤية ملتبسة، وأما في ذلك اليوم فتكون رؤيتنا وجها لوجه" (١ كورنتس ١٣: ١٢).

وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) (سورة الشورى٥١).

و- أن إلهه باق بغير آخر ولا انتهاء بقاءٍ لا يعتريه الزمان ولا الفناء[1].

ز- يقول إن كل شيء في جسمه المخلوق يسبح الخالق ويقدسه ويمجده إقرار نعمة وإقرار عبودية.

ح- يقول إن الله موجود في كل شيء، ولكن لا يمكن لكائن مهما كانت عظمة خلقه أن يسع تجلي الله - تعالى - مع كونه لا يكون بدون الله ارتباط خلق وإيجاد[2].

يواصل أوغسطين التنسك بالقدرة والعظمة الإلهية :-

فيقول: "هكذا اللهمّ أنت الذي أعطيتَ للطفل الحياة والجسم الذي كما نرى حَبوتُه بالحواسّ[3].وزوّدته بالأطراف، وزيّنته بصورة سويّة[4]. وبثثتَ فيه ما يحفظ وحدة كيانه"[5].

---

(١) يقرر الرجل هذا متأثراً بتدينه وما كان حوله من والدته ودعائها له بأن يكون رجل دين مسيحي وهذه هي الحقيقة التي تقررها الأديان عموماً ففي الإسلام قول الحق - تعالى -:
(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) سورة الرحمن الآيات ٢٦ - ٢٧.

(٢) زكريا إبراهيم، اعترافات القديس أوغسطين، مجلة تراث الإنسانية، المجلد الثاني، ص٩٩٠وما بعدها.

(٣) مازالت نفحات التدين تنساب على قلب الرجل، فهو يقرر أن كل المعارف الأولية قادمة من عند الله - تعالى - وهذا يتمشى مع رأي الكثير من علماء الكلام في قول الحق - تعالى -:
(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) سورة النحل الآية ٧٨.

(٤) إن الله مبدأ الوجود لما سواه، لأنه كمال الوجود وفعل محض يخلو من كل نقص، وعليه يتوقف كل ما سواه لوجوده ولأعماله.
وإنما هو إشارة إلى كمال ما هو بالفعل أن يمكنه أن يفعل شبهه.
فإذا إن لله القدرة أن ينشأ موجودات أخرى وجودها شبيهة ما لوجوده.
وأيضاً بالنسبة ما كان الشيء أكثر بالفعل فأكثر ما قدرته تمتد إليه.
فإذا قدرة الله تمتد إلى أنواع الأشياء المخلوقة وأعدادها لا متناهية.
ولذلك قيل في الكتاب المقدس:
"الذي يصنع عظائم لا تُسبر وعجائب لا تُحصى" (أيوب ٥: ٩).
وجاء في القرآن الكريم:
(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا)(سورة الزخرف ٤٨).

(٥) الاعترافات، الكتاب الأول، ٧/١.

يواصل أوغسطين اعترافاته مثبتاً في خضوع تام أنه لا مفرّ من الله إلاّ إليه :-

يقول: "ليذهبْ وليفرّ بعيداً عنك القلقون والظّلمة، فإنك تراهم وتبدّد ظلمتهم؛ ها هو الكون بهيّاً بهم وهم أنفسهم دِمام.

فيم ضاروك وفيم دنّسوا ملكوتك الممتدّ من أعالي سمائك إلى أقاصي أرضك خيّراً سليماً ؟

أين فرّوا حين فرّوا من وجهك ؟

وأين يفرّون منك فلا تجدهم ؟

لقد فرّوا منك كيلاً يروك وأنت تراهم، ليجدوك وقد أعموا أمامهم، فأنت لا تترك شيئا ممّا خلقت، ليجدوك أمامهم فيلقوا حساب ظلمهم العادلَ[1]، منسحبين من فيء لطفك، لاقين أمامهم عدالتك، وواقعين تحت طائلة بأسك "[2].

ثانياً :-

عن الشهوة وخطا الشّباب والميل إلى الرهبنة

يقول: "من كان يمكن أن يكبح اندفاعي إلى الشّقاء ويحوّل إلى الصّلاح فتنَ الأشياء المتجدّدة التي سرعان ما تزول، ويرسم لحلاوتها حدوداً، فيحملني لجّ الشّباب المتلاطم حتّى ساحل الزّواج، لتجد متنفساً، إن تعذّر أن تهدأ ثائرتها، في غاية الإنجاب كما تنصّ عليه شريعتك اللّهمّ يا واهبنا خلفة تعزّي موتنا، والقادر، بوضع يدك الرّفيقة علينا، أن تزيل عنّا"

---

(١) الفارّون من الله يجدونه أمامهم: قال ـ تعالى ـ:
(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) سورة النور الآية ٣٩.
وقال ـ تعالى ـ:
(وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) سورة التوبة الآية ١١٨.
(٢) الاعترافات، الكتاب الأول، ٢/٥.

" الأشواك والأحساك " التي لا يوجد في جنّتك مثلها.

وما ببعيدة عنّا قدرتك حتّى حين نصدّ عنك، أو ليتني على الأقلّ انتبهت أكثر إلى صوتك المُهيب بي من وراء الغمام:

"تكون لمثل هؤلاء مشقّة في الجسد، وأمّا أنا فإنّي أشفق عليكم"

و "حسنٌ للرّجل أن لا يمسّ امرأة"

و "إنّ غير المتزوّج يهتمّ فيما للربّ كيف يرضي الربّ وأمّا المتزوّج فيهتمّ فيما للعالم كيف يرضي امرأته"[1].

"ليتني أصخت بمزيد من الاهتمام إلى نداءاتك وخصيت نفسي من أجل ملكوت السّماء"[2].

ثالثاً :-

بداية جلسات الاعتراف:

من الملاحظ هنا: أن الرجل بعد أن قطع شوطاً ليس بالقليل في التنسك والزهد يواصل اللجوء إلى الله -تعالى- في أمر جديد وهو الإقرار بالإثم والاعتراف بالخطيئة ملتمساً العفو من الإله، موقناً بأن الهداية منه وحده، وأنه وحده هو الذي يغفر الذنوب بعد اعتراف العبد المخطأ بها.

حيث يقول:

---

(١) رسالة القدّيس بولس الأولى إلى أهل كورنتس: وقد كان الحواريّون بعكسه متزوّجين.
ورفض الإسلام البتوليّة (التي يقابلها فيه الجهاد)
وإن وُجد بين المتصوّفة من عدّ الزّواج عائقاً لإخلاص الحبّ لله، كمالك بن دينار الذي دعا إلى التّجرّد ورأى أنّ عرس المتّقين يوم القيامة.
بينما دافع آخرون عن ضرورته كالجنيد القائل:
" أحتاج إلى الزّوجة كما أحتاج إلى الطّعام "
والتستريّ القائل:
" الصّبر عنهنّ خير من الصّبر عليهنّ والصّبر عليهنّ خير من الصّبر على النار ".
(٢) تلميح إلى قول المسيح: " من الخصيان من وُلدوا كذلك من بطون أمّهاتهم ومنهم من خصاهم النّاس ومنهم من خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السّماوات. فليحتملْ من يحتمل " (متّى ١٩: ١٢).

"حقيق بي أن أحبّك يا ربّ وأشكرك وأعترف لاسمك، فلقد غفرتَ لي سيّئات أعمالي الكُبَر".

أعلم أنّك أنت بنعمتك ورحمتك أذبتَ كالثّلج خطاياي.

مَن من النّاس يجرؤ عند التّفكير بضعفه على أن ينسب لقواه الذّاتيّة نقاوته وبراءته ليوليك حبّاً أقلّ كما لو كان أقلّ حاجة إلى رحمتك الّتي تمحو بها آثام من ثاب إليك ؟

فلا يهزأ منّي من دعوته فاتّبع نداءك واجتنب الآثام الّتي يقرأها عنّي إذ أستذكرها وأعترف بها.

إن شفيتُ من علّتي على يد الطّبيب الّذي قيّض له ألاّ يعتلّ. أو بالأحرى أن يعتلّ أقلّ منّي وليزدد لك حبّاً.

وهو يرى أنّ من خلّصني من كلّ أسقام آثامي هو الّذي حفظه من أسقام تلك الآثام العظام "[1].

ويواصل الاعتراف ذاكراً خطاياه :-

فيقول: "تلك أمّهات الآثام الّتي تنشأ من شهوة الهيمنة والنّظر والحسّ، من واحد من هذه الأهواء أو اثنين أو منها مجتمعة.

ومن يعشْ في الشّرّ يخالفْ وصاياك العشر، الثّلاث والسّبع[2]، لذا تعيدنا إليك التّقوى الدّاخرة.

فتنقّينا من عادتنا السّوءى، وتغفر ذنوب المعترفين لك، وتسمع تنهّداتنا في الأسر، وتخلّصنا من القيود الّتي صنعنا لأنفسنا.

إن لم نرفع إلى العلاء ضدّك قرون حرّيّة زائفة.

في حرصنا المستزيد ومجازفتنا بفقدان كلّ شيء بحبّنا أنفسنا أكثر منك أنت الخير الأعظم"[3].

---

(١) الاعترافات، الكتاب الثاني، ٧/٢.

(٢) الوصايا الثّلاث تنظم علاقة العبد بخالقه، والسّبع علاقته بغيره (سفر الخروج وتثنية الاشتراع).

وفي تأويل أوغسطين جاءت الأولى ثلاثا تأكيداً للتثليث والثّانية سبعاً لعلاقة هذا العدد بقصّة الخلق.

الاعترافات، الكتاب الثاني، ٨/٣.

(٣) المرجع السابق.

تطور جلسات الاعتراف وجعلها على أيدي البشر:

يقـول أوغـسطين " ومن جهة أخرى أتوق كذلك إلى تنقية نفسي من تلك الخبائث على:

أيدي من يدعونهم أصفياء وصدّيقين:-

بدأ القديس والفيلسوف أولى خطوات السقوط في الجهالات، فبعد أن كان يعترف لله -تعالى- ليغفر له خطاياه جاء بفرية هي عقيدة الكنيسة في القرون الوسطى وهي: مقدرة رجال الدين على مغفرة الذنوب.

وهـي:

البدعة التي قامت عليها فيما بعد فكرة صكوك الغفران المدفوعة الثمن من المعترفين والممنوحة لهم من رجال الدين الكنسي والتي كانت سببا في تكون الفكر السلطوي لرجال الكنيسة وجعلتهم في مقام أعلى من مقـام الأباطـرة والحكـام وجعـل للـبطاركة الحـق فـي العفـو عـن ذلات الأباطرة.(١)

وعليه زعمت بان يدها مطلقة في توزيع الجنة وعرضها للبيع في مزاد علني وكتابة وثائق للمشترين تتعهد الكنيسة فيها بأن تضمن للمشترى غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبراءته من كل جرم وخطيئة سابقة ولاحقة ونجاته من العذاب، فإذا ما تسلم المشترى صك غفرانه ودسه في محفظته فقد أبيح له كل محظور وحل له كل حرام.

فماذا عليه لو سرق و قتل وأرتكب كل خطيئة وفعل كل فاحشة بل لو ألحد وكفر ما دام الصك في يده؟

أليس المسيح هو الذي منحه إياه؟ والمسيح – في زعمهم – هو الذي يدين ويعاقب ويثيب ويحاسب ؟

وإذا اطمأن المشترى إلى هذه النتيجة فقد بقي لديه ما ينغص حياته وينقص فرحته ويكدر غبطته ، ذلك أن والديه وأقرباءه المساكين قد رحلوا من هذه الدنيا، وليس معهم صكوك غفران ، لكن الكهنة رحمة بالناس وحرصا عليهم قد أباحوا له أن يشترى لمن يحب صكوك غفران،

---

(١) هـ. أ. ل. فيشر، تاريخ أوروبا - العصور الوسطى، نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة و السيد العريني، ص٥٦، الجزء الأول، طبعة ٦، ١٩٧٦م، جمعية الحديث بالاشتراك مع دار المعارف المصرية.

وما عليه بعد دفع الثمن إلا كتابة أسم المغفور له في الخانة المخصصة فيغادر الجحيم فورا ويستقر في ظلال النعيم مع المسيح والقديسين[1].

يقول أوغسطين: "وأحمل إليهم أطعمة".

هذه الفقرة صريحة في القول بأخذ الثمن لصك الغفران من قبل رجال الدين الذين يجعلون من أنفسهم آلهة تغفر الذنوب بأجر.

ليصنعوا منها في مشغل بطونهم أملاكا وآلهة.

دليل قاطع على أنهم يرتزقون ويتقوتون من الجلسات وأنهم يبيعون الصكوك لمن يدفع. ليخلصوني من الخطيئة.

هفوة جديدة متجددة من رجل الدين الفيلسوف في اعتقاده أن هناك من يغفر الذنوب غير الله-تعالى سبحانه-عما يقولون علواً كبيراً[2].

يقول أنجلز في هذا المضمار:

"إن الفكرة المنتشرة في أوربا خلال القرون الوسطى كانت فكرة رجال الدين والقساوسة، ولذا كان رأي الكنيسة هو المسيطر والأساس في التفكير والنشر آنذاك، وهكذا كان محتوى المنشورات القانونية والعلمية والفلسفية مطابقة مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية آنذاك"[3].

والواقع أن شخصية أوغسطين كانت تحمل في طياتها تناقضا يتنازعه قطبان من رهافة الوجدان والعاطفة من ناحية والرغبة الشديدة في انتهاب شهوات الحياة وملذاتها من أخرى؛ ولهذا كانت ذاته مسرحا لهذا الصراع بين عاطفته وشهواته، وحاول جهده أن يوفق في ما بينهما وجاء هذا التوفيق في نهاية الأمر، بالقضاء على أحد هذين القطبين مبقيا منهما على قطب العاطفة القوية والإحساس الجياش.

---

(١) سفر بن عبد الرحمن،العلمانية نشأتها وتطورها،الطبعة الثانية،سنة١٩٩٩م،ص ١٢٨.

(٢) فإن الأديان الغير محرفه تسند المغفرة والعفو لرب العالمين وحده دونما واسطة، ففي الإسلام قال الله - تعالى -:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) سورة آل عمران الآية ١٣٥. الاعترافات ١/٤.

وفي سبيل درء الشبهة يقول أوغسطين بعد أن أدرك زلته مدافعا عن أحقية الاعتراف أمام البشر:

" لكن لأنّ المحبّة " تصدّق كلّ شيء، سيما بين من تؤلف بين قلوبهم، أعترف لك يا ربّ ليسمعني كذلك النّاس، الذين لا أستطيع إثبات صدقي لهم، وإنّما يصدّقني منهم من تفتح المحبّة لي أسماعهم ".

(٣) حسين مروه،النزاعات المادية في الفلسفة الإسلامية، الجزء الثاني، ص٤٥٧.

اكتشاف الفلسفة : -

يبدأ الرجل بداية سفسطائية[1] بحته، في تعلم فن البلاغة والخطابة والجدل والأدب عامة.

ويقول في هذا: "كنتُ أتعلّم، وأنا لا أزال في سنّ غضّة، كتب البلاغة التي كنت أطمح إلى البروز فيها، ووصلت وفق منهاج التّعليم المتّبع إلى كتاب رجل يدعى شيشرون يُعجَب الجميع تقريباً بأسلوبه لا بقلبه ".

هنا يصف شيشرون بأنه خطيب وليس كاهناً -أي: متديناً- حيث الإعجاب كان بفصاحة اللسان وليس بما يأتي من أعمال تدلل على إيمانه، شأنه في هذا شأن فلاسفة المذهب السفسطائي.

يقول: "يتضمّن ذلك الكتاب دعوة إلى الفلسفة ويسمّى هرتنسيوس[2].

---

(١) كان السفسطائيون يقولون:إن الحق والعدل وسائر المفاهيم الأخلاقية والحقوقية تتبع أراء الناس، وكان من أبرز مصادق ذلك مقولتهم بأن: " الإنسان هو مقياس كل شيء " حيث يستنتج من محاورات أفلاطون أن معظم حوارات سقراط معهم كانت تدور حول هذه المفاهيم، أنظر محاورات أفلاطون، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب - ٢٠٠٢م.

(٢) هرتنسيوس: سمّاه كذلك لأنه جاء في قالب حوار مع محام بهذا الاسم. لم يبق منه إلا شذرات.

ومن الواضح أنه ليس مهمّا حقا، ولا شيشرون نفسه، في تاريخ الفلسفة.

وهنا نلاحظ معرفة أوغسطين ربما كانت محدودة باليونانيّة، لغة الفلسفة بلا منازع في عصره، لذا كانت السبب في أن يدرس الفلسفة من مصادر لاتينيّة أساساً.

والحال أنه غيّر تفكيري وإليك حوّل صلواتي، وبدّل مناي ورغباتي ".

ثم يواصل أوغسطين فيقول:

"فجأة سقطتْ في عيني كلّ طموحاتي التّافهة وبتّ أتوق إلى الحكمة الخالدة بحماس قلبيّ يفوق الوصف، وبدأتُ أستفيق لأفيء إليك. لم تكن بغيتي اكتساب ذلاقة اللّسان التي كنت حسب ظاهر حالي أشتريها بما أتلقى من مبالغ من والدتي ، بل لقي مضمونه في نفسي قبولاً حسناً"[1].

ينتهي من دراسته للكتاب بالحكم عليه بأنه دعوة إلى التفلسف، ثم يهدينا النتيجة التي وصل إليها من دراسته للكتاب، أنه بدأ يفئ إلى الحب الإلهي ويترك البحث عن علوم اللسان وذلاقته، بل بدأ فيما يسمى التصوف الفلسفي[2].

ولذلك يقول:

كم كنت يا ربّ أتحرّق للتّحليق بعيداً عن الأمور الدّنيويّة عائداً إليك وأنا أجهل ما أنت فاعل بي. فعندك أنت الحكمة! يسمّى حبّ الحكمة باليونانيّة فلسفة، وهو بالذّات ما كان ذلك الكتاب يحمّسني لمعرفته. هناك من يُضِلّون بالفلسفة ويغوون، مزوّقين ومنمّقين أباطيلهم بهذا الاسم الجليل الجذّاب والمبجّل. وقد ذكر مثل أولئك الفلاسفة من ذلك العصر والعصور السّابقة كلّهم تقريباً وعُرضت مذاهبهم في ذلك الكتاب، وما جاء فيه مصداق هداك الموحى من روحك القدس إلى عبدك الصّالح النّقيّ: " احذروا أن يسلبكم أحد بالفلسفة والغرور الباطل حسب سنّة النّاس على مقتضى أركان العالم لا على مقتضى المسيح، فإنّه فيه يحلّ كلّ ملء اللاّهوت جسديّاً"[3].

وما حدث له حيال هذا الكتاب وهو ما يجوز أن يحدث أحيانا أن يكون كتاب غير مهمّ في حدّ ذاته نقطة انطلاق لتفكير أحد أعلام الفكر الإنسانيّ.

(١) الاعترافات، ٤/٣.

(٢) وهو المخلوط بنظريات الفلاسفة وشطحاتهم، غربيين كانوا أم إسلاميين.

(٣) رسالة القدّيس بولس إلى أهل كولسّي ٨: ٢-٩، ورغم محاربة النّصرانيّة للفلسفة إلاّ أنها تأثرت-هي ذاتها بفلسفة عصرها لاسيما الأفلاطونيّة مثلاً في فكرة الوسيط بين الواحد والكثرة.

يواصل أوغسطين الحديث والاعترافات

يقول: " فعلاً نشأتْ لديّ فكرة أنّ الفلاسفة الملقبين بالأكاديميّين[1] كانوا أحكم من غيرهم، في تأكيدهم لزوم الشّكّ في كلّ شيء، وحكمهم باستحالة إمساك الإنسان بأيّة حقيقة.[2]

كذلك فعلاً بدت لي جليّة أفكارهم وفق نظرة النّاس إليهم، ولم أكن قد فهمت حتّى ذلك اليوم مقاصدهم.

لم يفتني أن أردع مضيّفي عمّا رأيت لديه من إيمان مفرط بالخرافات الّتي تعجّ بها كتب المانويّة." [3]

يروي لنا ما كان عليه من ثقافة

يقول أوغسطين: "كنتُ أريد التّفوّق في الدّراسات المدعوّة بالشّريفة[4]

---

(١) الأكاديميّون: مدرسة أفلاطون، وهي في الأصل ذات نزعة موثقة لكنّ الأكاديميّة " الوسطى " المقصودة على الأرجح بزعامة أركليسياس (٣١٦ - ٢٤١) ق.م غالت في النّزعة الاحتماليّة القريبة من مذهب الشّكّ البيرّونيّ، ثمّ خففها ممثلو الأكاديميّة المتأخرة ككنياس (٢١٥ - ١٢٦) ق.م وفيلون.

(٢) وذلك إن بعض الفلاسفة قالوا:
إن السعادة الإنسانية الكبرى هي ما نحصل عليها في هذه الحياة، ولو كانت ناقصة.
فإن أرسطو قال: إن السعادة هي معرفة الله بطريق علم ما بعد الطبيعة أو الإلهيات.
وقال ابن رشد: إنها في اتصال بالعقل الفعال أو الملائكة.
أما في الاجتهاد في هذه المسألة أقول:
هذان الفيلسوفان الكبيران لم يستطعا أن يفهما أن السعادة الكاملة مستحيلة في هذه الحياة، بل هي ممكنة في الآخرة.
فإن النفس في الآخرة سوف تعرف بنوع أعلى، مثل الملائكة، قال الله تعالى: (لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) (سورة ق:٢٢)
كما جاء في الكتاب المقدس: "افرحوا وابتهجوا: إن أجركم في السموات عظيم" (متى ٥: ١٢).
وقال الله تعالى أيضا:
(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (سورة الأنعام: ٣٢).

(٣) أوغسطين، الاعترافات، ٤/٣

(٤) العلوم الشّريفة سبعة: ثلاثة دنيا هي النّحو والخطابة والمنطق، وأربعة عليا هي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك. وقد كتب عنها في عصره تقريبا الإفريقيّان مكروبيوس وكابلا.

والمفضية إلى مساجلات المحاكم وحيث يُعدّ الأفضلَ الأكثرُ غشّاً وكذباً.

هكذا يبلغ بالناس العمى حدّ المفاخرة بعماهم.

وقد بذذت بقيّة الطلبة في مادّة الخطابة، فكان ذلك يملأني نشوة وخيلاء فأنفخ صدري زهواً، وإن كنت أكثر اعتدالاً كما تعلم اللّهمّ وبكثير وأبعد عن المفاسد ممّن يُدعون "المدمّرين"[1]

الذين كان اسمهم النّحس والشّيطانيّ بمثابة شهادة في الأدب والكياسة وكنت أعيش بينهم في خضمّ من السّفاهة ببقية من الحياء[2]

إذ لم أكن مثلهم، ولكن كنت معهم وأستطيب أحياناً صداقاتهم مستهجناً دوماً فعالهم، تلك التّدميرات التي كانوا يلاحقون بها الجدد الوجلين يريدون اضطهادهم بلا مبرّر بسخريّتهم، مغذّين بذلك غبطتهم السوء بإيذاء الغير.

لا شيء أشبه فعلاً بعملهم ذاك من أعمال الشّياطين.

وهل ثمّة -إذن- تسمية أوفق من "المدمّرين" لأولئك المدمَّرين قبل سواهم، والمنحرفين بفعل الأرواح الغويّة السّاخرة خفية منهم مُضِلّتهم في حبّهم خداع وتهزئ الغير تحديداً "[3].

أولاً:

دراسة كتاب المقولات العشر

يقول: "وفيم نفعني، وأنا في سنّ العشرين تقريباً، أن يقع بيدي كتاب أرسطو[4] المسمّى "المقولات العشر"[1]، فقرأته بدون عون أحد وفهمته.

---

(١) إشارة واضحة إلى المنهج السفسطائي الجدلي المعتمد على الخطابة والبلاغة.

(٢) يعرب الرجل على أنه في قرارة نفسه غير راض عن أسلوب السفسطة وأنه يميل إلى الأخلاق.

(٣) الاعترافات، ٣/٤.

(٤) أرسطو: فيلسوف إغريقي، عرف باهتمامه بالميتافيزيقا و بالمنطق. و يمثّل أرسطو في تاريخ الفلسفة الغربيّة أهمّية بالغة بحكم أعماله التي كان لها تأثير على العديد من المدارس و النّظريّات الفلسفيّة إلى حدّ اليوم. ولد في مقدونيا و توجّه منذ سنّه السّابعة عشرة إلى أثينا كي يتتلمذ على يد أفلاطون، و قد كان ألمع تلامذته إثر وفاة أفلاطون سنة ٣٤٧ ق.م التحق أرسطو بمدينة أسوس في آسيا الصّغرى حيث شغل خطة مستشار سياسي للطاغية هارمياس. لكن ما لبث فيليب المقدوني أن دعاه في سنة

ولقد كان -كما بدا لي- يتحدّث بوضوح كافٍ عن جواهر الأشياء، كالإنسان مثلاً، وماذا تتضمّن ؟ كصورة الإنسان كيف هي ؟ وقامته كم تبلغ من قدم ؟ أو العلاقة كالقرابة، أخ من هو مثلاً ؟

أو المكان، كأين يوجد ؟ أو الزّمان، كمتى وُلد ؟ هلَ هو واقف أو جالس ؟ هل له نعل أو شكّة أسلحة ؟ هل يفعل شيئاً ما أو يقع عليه فعل ما ؟ وعديد الأوجه التي استطعت إبراز بعضها بأمثال من منظور هذه المفاهيم التّسعة، أو من منظور الجوهر نفسه أو الماهية "[2].

يحدثنا أوغسطين عن نتيجة دراسته لكتاب المقولات

يقول: "فيم أفادني ذلك والحال أنه أضرّ بي لمّا أوقع في ذهني أنّ كلّ شيء قابل للحصر داخل تلك المقولات العشر، فدفعني إلى تصوّرك اللّهمّ، أنت البسيط غاية البساطة والمنزّه عن التّحوّل، كذات تُضفى عليها صفة العظمة أو البهاء، بحيث تكونان فيك على غرار الصّفات في الذّات، كما هو الشّأن في الجسم. والحال أنك ذات عظمتك وجمالك، بينما لا يكون الجسم عظيماً وجميلاً من مجرّد كونه جسماً"[3].

ويواصل أوغسطين الحديث

يقول: "وفيم أفادني أن أقرأ بمفردي وأفهم كلّ ما وقع تحت يدي من كتب الصّنائع الحرّة الشّريفة كما يدعونها، أنا عبد شهواتي السّيّئة المنغمس في الشّرور؟ كنت أبتهج بها وأجهل مصدر ما فيها من

---

٣٤٣ حتّى يشرف على تعليم ولده الذي سيدعى لاحقاً بالإسكندر الأكبر. و بعد تولي هذا الأخير، بعد نضجه، السّلطة، قفل راجعاً إلى أثينا حيث أسّس مدرسته الخاصّة " المعهد ".

(١) المقولات العشر: الجوهر والأعراض التّسعة: الكم والكيف والإضافة والأين والمتى والملك والوضع والفعل والانفعال، جمعها بعضهم رجزاً:

نريد الطّويل الأزرق ابن مالكٍ * في بيته بالأمس كان متّكي.

بيده رمح لواه فالتوى * فهذه عشر مقولات سوا.

وشُهر الكتاب عند العرب باسم " قاطيغورياس " وعُرف كذلك من خلال شرح فرفوريوس له المعروف باسم " إيساغوجي ".

(٢) الاعترافات، ١٦/٤.

(٣) يشير أوغسطين إلى أن دراسته للمقولات العشر جعلته يعتقد أن كل شيء واقع ومحصور داخل هذه المقولات وأنه لما ذهب إلى التفكير في الكنه كانت النتيجة أنه حاول تصور ذات الله -تعالى- في صورة ذات البشر وقاس الصفات الإلهية على صفات البشر، هذا العيب من جراء اعتقاده أن المقولات شامله لكل شيء.

حقائق ثابتة، إذ اتّخذت النّور ظِهريّاً وولّيت وجهي نحو الأشياء التي تستمدّ منه ضياءها، بحيث لا يستقبل ضياءه وجهي الّذي أرى به الأشياء المضاءة. كلّ ما فهمتُ من فنّ الكلام والاستدلال، أو من قيس الأشكال، أو الموسيقى وعلم العدد"[1].

"لكن فيم نفعني ذلك، وأنا يوم ذاك أتصوّرك اللّهمّ ربّي الحقّ كائناً جسمانيّاً نيّراً لا متناهياً"[2].

اكتشاف الحقيقة منقوصة في كتب الأفلاطونيّة المحدثة :

يقول: "بدءا شئتَ أن تبيّن لي كيف " تقاوم المتكبّرين وتعطي النّعمة للمتواضعين"، إذ "صار كلمتك جسداً وحلّ بين النّاس"، فأمددتَني بواسطة رجل قد انتفش كبْراً مهولاً ببعض كتب الأفلاطونيّين[3] مترجمة من اليونانيّة إلى اللاّتينيّة.

---

(١) الكلام (نحو+ خطابة) والاستدلال والهندسة والموسيقى وعلم العدد: تلك هي مع الفلك (أو علم الهيئة) الذي لم يذكره العلوم الشّريفة. وجدير بالتّنويه أنّ إفريقيّين آخرين أفلاطونيّين لكن غير مسيحيّين من القرن الخامس كتبا عن هذه العلوم: مكروبيوس وكابلا. وغريب أنّ أغسطينوس رغم اهتمامه بالتّنجيم في بعض مراحل حياته ومع معرفته بإنجازات علم الفلك وببعض قوانينه (مثلاً أنّ الكسوف لا يكون إلاّ في فترة المحاق: انظر مدينة الله ٣: ١٥) كان غير ملمّ بهذا العلم.

(٢) الاعترافات، ١١/٥.

(٣) الكتب الأفلاطونيّة: والأفلاطونيّة المحدثة: أفلوطين (٢٠٥ ـ ٢٧٠) أو تلميذه فرفوريوس الصّوريّ (٢٣٤ ـ ٣٠٥) رغم عدائه للمسيحيّة والذي يرجّح أنّ أوغسطين لم يقرأ كتابه ضدّ المسيحيّة كما يتبيّن من رسالة له إلى ديوغراتياس).
أثّرت الأفلاطونيّة في صيغها المحدثة (التي بدأت قبل ذلك إذ يمكن أن نجدها مثلاً عند فيلون اليهوديّ الإسكندريّ (٢٠ ق.م ـ ٥٠ م) في المسيحيّة ربّما منذ البداية، وتأثيرها بيّن في القرن الثاني في يوستينوس (١٠٥ ـ ١٦٥) وأثيناغوراس، وفي القرن الثالث في كليمنس الإسكندريّ (١٥٠ ـ ٢١٣) وأريجينس (١٨٢ ـ ٢٥١)، وفي القرن الرّابع في غريغوريوس النّيسيّ وأمبروسيوس، ثمّ أغسطينوس ولاحقاً في بويتيوس.
كما أثّرت الأفلاطونيّة المحدثة أو الإسكندرانيّة كما يسمّيها العرب في الفلسفة الإسلاميّة (من خلال تاسوعات أفلوطين ٤ و٥ و٦ التي ترجمها عبد المسيح بن ناعمة الحمصيّ ٢٢٠هـ وسمّيت خطأ " أثولوجيا أرسطو أو الرّبوبيّة "، والرّسالة المنسوبة للفارابيّ بعنوان " مسألة في العلم الإلهيّ " وشذرات وردت عند السّجستانيّ والشّهرستانيّ ومسكويه باسم " الشّيخ اليونانيّ " وبعض كتب برقلس (٤١٠-٤٨٥) " كاسطقسات الثيولوجيا أو مبادئ في الإلهيّات " المترجمة باسم " الإيضاح في الخير المحض "

ولقد قرأت في هذه الكتب لا بالنّصّ الحرفيّ بل نفسَ المعنى تماماً مؤيّداً بأدلةٍ متعدّدةٍ ومتنوّعةٍ أنّه "

في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله[1]. هذا كان في البدء عند الله.

كلٌّ به كُوِّن وبغيره لم يكوَّن شيء ممّا يكوَّن. وفيه كانت الحياة والحياة كانت نور النّاس والنّور يضيء في الظّلمة والظّلمة لم تدركه".

كما أنّ نفس الإنسان وإن "شهدت للنّور لم تكن هي النّور" لكنّ "الكلمة -اللهَ ذاتَه- هو النّورُ الحقيقيّ الّذي ينير كلّ إنسان آت إلى العالم " وأنّه " كان في العالم والعالمُ به كُوِّن والعالم لم يعرفه"[2].

ثانيـا:

بحثه عن الحقيقة واليقين:

الواقع أنّ عناية أوغسطين بمشكلة المعرفة لم تكن عناية عقلية مجردة خالصة كما هو الحال عند اليونانيين، ولكنها كانت في المحمل الأول عناية وجودية لان مشكلة المعرفة عنده ارتبطت ارتباطا وثيقا بظروف حياته وتقلباتها.

إذ كانت حياة أوغسطين تعد عنوانا على البحث عن الحقيقة ذاتها، وهي هل الحقيقة ممكنة، التحقيق ام لا، وإنما كانت ممكنة

والمنسوبة إلى أرسطو). وتجلى ذلك مثلاً في نظريّة الفيض عند الفارابيّ وابن سينا وربّما أثر في بعض الصّوفيّة الحلوليّة كالحلاّج.
أنظر: جون ولسون وآخرون، مصر وأرض الرافدين، مقالان في كتاب" ما قبل الفلسفة" ترجمة جبرا خليل جبرا، مراجعة، محمود الأمين، بغداد، منشورات دار الحياة، ١٩٦٠، ص٨١-١٦٣، مقتبس من مصطفي حسن النشار،فكرة الألوهية عند أفلاطون.

(١) " في البدء... ": يوحنا ١: ١-١٤ تلتقي المسيحيّة بالأفلاطونيّة المحدثة في الاستعانة بوسيط بين الواحد والكثرة لكنّهما تختلفان في تساوي الأقانيم الثلاثة في الجوهر والرّتبة في الأولى والتّدرّج الأنطولوجيّ في الثانية: الأوّل فالعقل فالنّفس. ومفهوم " الكلمة " في أدب النّصارى مرادف " للوغوس " في الفلسفة اليونانيّة وهو مفهوم يعود إلى هرقليط (٥٧٦ - ٤٨٠ ق م) الذي أطلقه على العقلانيّة المنبثة في كلّ الكائنات، واستخدمه الرّواقيون بمعنى العقل الكونيّ محرّك كلّ أجزاء العالم وشخّصه أفلوطين كعقل مفارق وسيط بين الله والعالم. المرجع السابق.
(٢) يظهر هنا تأثر الرجل بدراسته واعتناقه للمانوية في القول بوجود إلهين أو طبيعتين أو جوهرين.

التحقيق، فكيف يتسنى للإنسان أن يثبت ذلك ؟ ، أعنى يثبت إمكانية التحقيق بالنسبة له ؟ رأى أوغسطين أن الشك في قدرة الحواس على إمدادنا بالمعرفة كما فعل الشكاك لابد وان يخضع في المحمل الأول لمنهج واضح، هو منهج البحث وهو الأسلوب الذي نتمكن به من الوصول إلى الحقيقة.

وهو في هذا لم يبتعد عن فلاسفة العصور الحديثة.

والواقع أن منهج الحقيقة عند أوغسطين كان الحدس أو الوجدان وهو ما يعنى:

الإدراك المباشر للحقائق، أو المعرفة المباشرة العينية، أعنى المعرفة بلا وساطة، حيث تسقط كل الحدود الوسطى بين الذات وموضع معرفتها، وهذا المنهج تركز أولا على معرفة الذات، فمعرفة الإنسان بذاته هي نقطة البدء في وصوله إلى الحقيقة، أو إلى المنهج الذي يتمكن به من إثبات إمكانية الحقيقة والطريق المؤدى إليها، وهى نقطة البداية في فلسفة ديكارت كلها، إذ بدا مثل أوغسطين من الفكر ليصل إلى الوجود وقبل أن يبدأ بالفكر الذاتي، بدا بالشك في المعارف السابقة.

وهكذا فالمعرفة عند أوغسطين تبدأ بالشك، ومبدأ الشك عند أوغسطين يبدأ من واقع أن الناس يختلفون في كل شيء من حياة وعلم وإرادة، إلا إنهم يتفقون في أنهم يشكون، ومن ثم له الشك حقيقة تحتوى على يقين لا ريب فيه، فانه يرتبط بحقائق أخرى كالحياة والعلم والإرادة....الخ

فالشك مرتبط بالحياة والعلم، فشكي يعنى أنا أحيا، وهو مرتبط بالعلم فعندما اشك اعلم أنني اشك، وعندما اشك فإنني لا اطلب إلا الحقيقة واليقين، وعندما اشك استحضر وأتذكر ما اشك فيه، وهكذا كله يدل على:

<u>أولا:</u> وجود الشك وحقيقته.

<u>ثانيا:</u> أن كل ما يرتبط بهذا الشك من عمليات عقلية ونفسية هي أيضا حقائق يقينية.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى وجود حقائق يقينية من خلال منهجية الشك.

ولكن الحقيقة الجوهرية التي يصلها أوغسطين من خلال عملية الشك هي:

أنّ الحقائق المرتبطة بالشك كالحياة والتذكر والعلم تثبت في النهاية أن هناك ذاتا هي التي تقوم بعملية الشك وبكل العمليات النفسية التي دعوناها حقائق.

ومن هنا أثبت أوغسطين أولى الحقائق في مشكلة المعرفة وهي:

حقيقة وجود الذات:

والواقع أن إثبات وجود الذات من خلال الشك وإثبات ما يتصل بها من حقائق؛ إنما جاء من طريق المعرفة الحدسية المباشرة أو المعرفة الوجدانية وحقيقة ذلك تنبع من، أننا في المعرفة الحسية لا ندرك الأشياء على نحو مباشر ولكن بتوسط نوافذ الحس التي تعطينا صورا باهتة عن الأشياء في الخارج، أما الوجدان الحدسي بالمعرفة المباشرة، فيمدنا بالحقائق ذاتها، أي الحقائق في أصولها حيث تحضر في النفس حضورا مباشرا، ومن ثم كانت حقائق يقينية لا يمكن الشك فيها وذلك لحضورها أمام العيان والوجدان مباشرة ودون توسط.

هكذا توصل أوغسطين إلى حدس الذات وهى بداية المعرفة ذاتها؛ لأن المعرفة تتضمن إلى جانب معرفة الذات معرفة ما هو خارج الذات، أعني الأشياء الخارجية والذوات الأخرى، فكيف ينتقل أوغسطين من المعرفة الذاتية بالعالم الخارجي ؟

يرى أوغسطين أن معرفة العالم الخارجي تختلف عن طريق المعرفة بالذات، ومن ثم فرق بين عالمين:

عالم الحس.

وعالم العقل.

تماما كما رأى أفلاطون والأفلاطونية المحدثة من قبل أو رغم هذا فإنه لم ينكر العالم الحسي بل أعطاه وجودا وحقيقة، وأعطى له قيمته في اكتشاف المعرفة وعلى الرغم من هذا فانه قد رأى الحس والعالم الحسي غير كاف من الناحية العلمية، لان الإدراك الحسي يؤدى إلى

المعرفة العلمية التي هي المعرفة بتلك الحقائق الأزلية الأبدية ، والتي توجد من حيث طبيعتها في داخل النفس.

ويصل الإنسان إليها، بالمنهج الذي يثبت به حقيقة الذات، وهذه الحقائق الأزلية هي حقائق العلم والرياضة والمنطق.

ويرتد هذا عند أوغسطين إلى أخذه بالمبدأ الأفلاطوني الذي يرى أن أشياء الحسي ليست إلا نسخا مشوهة للحقائق أو المثل الأبدية وهى تنزع إلى الكمال المتحقق في الحقائق الأبدية.

"والواقع أن أوغسطين لا يجد ثمة فجوة في هذا بين عالمي الحس والعقل، لأنه يرى كأفلاطون أن المعرفة الحسية مجرد باعث يحمل النفس على الدخول في ذاتها لاكتشاف الحقائق المطمورة أو الكامنة فيها، وهى الحقائق التي تعد مقياسا لكل ما ندركه، وهنا تبرز ضرورة الحس عند أوغسطين باعتباره دافعا للإنسان على معرفة الحقائق الخالدة، وضرورة الحس هذه تعد مقياسا للمعرفة الحسيه ذاتها وهكذا تتضامن معرفة الحس والعقل في المنظومة المعرفية للقديس أوغسطين.

ولكن إذا كانت حقائق النفس الأزلية والأبدية بين الناس بين جميع الأشخاص، فهي حقائق مشتركة، فمن أي مصدر يمكن أن يأتي هذا الاشتراك ؟

يفرق أوغسطين بين نوعين من الوقائع:

الأولى: الوقائع النفسية وهي التي:

طريقة الإدراك فيها مختلفة بالنسبة للأفراد.

الثانية: والوقائع المنطقية الميتافيزيقية وهي:

التي موضوع الإدراك فيها واحد.[1]"

"ويعبر عن إشراقية واضحة عندما يرى أن الحقائق الكامنة في الذات، ليست موضوع الذات، بمعنى أن النفس لا يمكن أن تكون مصدرا لهذه الحقائق، لأن النفس ناقصة وفانية، ومن هنا توصل إلى أن مصدر حقائق الذات لا بد وأن يكون غير الذات، وطبقا للمقولة التي ترى أن المعلول لا يحتوى على أكثر من علته، فيرى أوغسطين الإشراقي أن

---

(١) د.عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطي ٢٥

هناك نورا أزليا أبديا به ندرك الحقائق، وهذه الحقائق الكامنة في النفس هي فيض من النور الأول وهو الله أو اللوجوس أو الكلمة"[1]

فهو يرد المعرفة إلى النور الإلهي الأزلي الذي ينير صفحة النفس، فتدرك الحقائق الأبدية حدسا، و كأني بأوغسطين ينادى بنظرية الفيلسوف الإسلامي... الإشراقي شهاب الدين الهروروى وكلاهما يمتد إلى صدى نظريات أفلاطون في الفيض الإلهي.

وهكذا تكون الحقائق الكامنة في النفس فيضا من الله وهى الدلالة عليه باعتباره المحدث لها ، وهكذا يكتشف أوغسطين الوجود الإلهي من بحثه في نظرية المعرفة.

وما يهمنا هنا:

أن القديس أوغسطين في انتقاله بين هذه المذاهب من اجل تفسير الحقيقة، كانت تتنازعه الشكوك، فلم يقنع منذ البداية بمذهب ما وان كانت نزعته الوجدانية التي تواءمت مع روح المسيحية وجوهرها، وكذا مذهب أفلاطون بما فيه من مثالية عقليه بقيا مع أوغسطين حتى النهاية، و منهما معا تشكلت فلسفته، فحاول ان يوفق بين الدين المسيحي والعقلانية الأفلاطونية وهو ما عرف بالتوفيق بين النقل والعقل أي الإيمان - الوحي والدين - والعقل.

حيث يقول في هذا الشأن في الاعترافات:

" ظللتُ أمسك قلبي عن أيّة مصادقة خوفاً من الهاوية، متردّياً بتردّدي[2]، لرغبتي في أن يتمّ لي حول ما لا أرى يقين كيقيني بأنّ سبعة وثلاثة تساوي عشرة.

إذ لم يصل بي جنوني حدّ التفكير حقّاً باستحالة إدراك هذه الحقيقة اليقينيّة، وإنما كنت أرغب في الوصول إلى يقين مماثل عن

---

(١) حسن حفني نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، محاورة المعلم لأوغسطين، دار التنوير بيروت، ص ٦٤.

(٢) العبارة بها دليل قوي على أن دراسته للفلسفة كونت عنده بدايات مذهب الشك، وأنه راح كأحد الشكاك ينشد البحث عن الحقائق الرياضية ظناً أنها هي اليقينية التي لا تقبل الخطأ.

الأشياء الأخرى سواء كانت حسيّات غير حاضرة أمام حواسّي أو روحانيّات لم أكن إذاك أدري كيف أتمثّلها إلاّ على غرار الحسيّات[1].

كان يمكن أن أشفى بالإيمان لأوجّه بصيرتي، وقد جليتْ بنحو ما إلى حقيقتك الخالدة التي لا تهن من أيّ شيء. لكن كما يحدث لمن جرّب طبيباً سيّئاً أن يخشى تسليم نفسه حتّى لجيّد، كذلك ظلّت نفسي العليلة التي ما كان ليشفيها حقاً إلاّ الإيمان ترفض العلاج مخافة الإيمان بأباطيل، متمنّعة على يديك أنت الذي ذرأتَ دواء الإيمان وذررته على أمراض الأرض كلّها ومنحته تلك النّجاعة العجيبة"[2].

ثالثاً:

اعتقاده في وجود جوهر للشرّ:

يقول: " من هنا اعتقادي في وجود جوهر للشرّ مماثل هو أيضاً ذي كتلة بشعة دميمة، إمّا ثخينة يدعونها أرضاً، وإمّا دقيقة ولطيفة كجسم الهواء يتخيّلونها روحاً شرّيراً زاحفاً على الأرض. ولأنّ تقواي، أيّا كانت، كانت تحملني على الاعتقاد بأنّ إلهاً خيّراً لم يخلق أيّ جوهر شرّير[3]، نصبتُ الكتلتين في تضادّ متصوّراً كلتيهما لا متناهية، مع ضيق في الخبيثة وسعة في الخيّرة[4]، وعن هذه البُداءات الوبيئة انجرّت بقيّة

---

(١) اليقين حول الإلهيّات والرّياضيّات: في " التّهافت " يتحدّى الغزاليّ الفلاسفة سائلاً: " فأين من يدّعي أنّ براهين الإلهيّات يقينيّة كبراهين الرّياضيّات؟ " بالنّسبة لاختيار مثال ٣+٧=١٠ انظر ٣-٨.

(٢) الاعترافات ٤/٦.

(٣) لا شيء هو شر بذاته، لأن الشر هو انعدام ما ينبغي أن يكون حاضراً، وهذا هو دائماً في موضوع خير، لأنه موجود. ولذلك قال النص في الكتاب المقدس:
"ورأى الله جميع ما صنعه فإذا هو حسن جداً" (التكوين ١: ٣١). ويماثله قول الحق سبحانه في القرآن الكريم:
(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) (سورة السجدة ٣٢: ٧).

(٤) نقول هنا:أن الرجل ما زال متأثرا بالمانوية القائلة: إنه في العالم مبدآن:
الأول: هو حسن وروحي.
الثاني: رديء ومادي.
ومن ثم موقف المجوس من الفرس.
وفي زماننا هذا أيضاً يوجد من يصرّ على واقعية الشر في العالم ويزعم أن له وجود ما بنفسه. وتميل إلى نفس الاتجاه اعتقاد الدين التقليدي في الإفريقية، من حيث تفترض أن بعض الجن الرديئين خارج سيطرة الله.

ضلالاتي فكلما حاولت فيّ، تمثّلك لا متناهياً من كلّ الوجوه سوى واحد أضطرّ إلى الإقرار بتناهيك فيه هو مضادّة كيان الشرّ لك[1] من تصوّرك متناهياً من كلّ الوجوه في صورة الجسم البشريّ. ويبدو لي أفضلَ الاعتقادُ بأنّك ما خلقت أيّ شرّ -وهو ما كنت في جهلي أتصوّره لا جوهراً فقط بل وجسمانيّاً أيضاً لعجزي عن تمثّل الرّوح إلاّ كجسم لطيف ينتشر مع ذلك في حيّز المكان- من الاعتقاد بفيض جوهر الشرّ كما أتصوّره عنك[2].

يواصل أوغسطين ولكنه يقع في الزلل ولا يمنعه تفلسفه منه:

يقول: "بل أرى ابنك الوحيد منقذنا قد صدر بذلك النّحو من كتلة كيانك النّورانيّ لتخليصنا ولا أعتقد بشأنه إلاّ ما يتيح لي تخيّله غروري"[3].

أولا: نلاحظ تردد الرجل في اعتقاداته وإيمانه مما ينبئ علنى أنه لم يتخلص من تأثره بمذهب الشك الفلسفي، فيعاود الحديث عن وجود الشر في الكون، لكن في هذه المرة يقول: بخطأ من قال بوجود شر في الكون.

وإن الشر يؤسس في الخير، لأنه لا يمكنه أن يوجد بنفسه، بل إنه عدم لا يوجد إلا في موضوع. وإن الشر لا يوجد في نقيضه، مثل العمى في البصر، بل في موضوع، مثل الحيوان.

(١) يرى أن الله هو الخير المطلق وعلة الخير في كل ما سواه، إنه العلة لكون أي شيء آخر مطلوبا كغاية، وكما كل علة ثانوية تعمل بتأثير العلة الفاعلة الأولى، كذلك كل ما يشترك في خيرية الله يجد إنجاز كماله في اتجاهه لخير الله وفي خدمة مقاصده مباشرة أو غير مباشرة.متمثلا لما جاء في الكتاب المقدس:

"الرب صنع كل شيء لغايته" (الأمثال ١٦: ٤).

وجاء في القرآن الكريم:

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (سورة البقرة ٢: ١٥٦).

(٢) تأتي المانوية بثمارها في عقيدة الرجل حيث يرى جوهر الشر ويبدأ في تصوره تارة متناه وتارة جوهر غير متناه، ثم ما لبث أن دعاه إيمانه بالمسيحية إلى الاعتقاد بأن قوى الشر والخير في صراع دائم، ومن الضلالات التي قاده إليها تصوره لجوهر الشر اعتقاده تناهي جوهر الخير الذي يراه في النهاية هو إلهه.

(٣) الاعترافات، ٥/٦.و يظهر هنا تأثره بأفلاطون حيث ينفي أن الله يخلق الشر لأنه خير مطلق فهو يخلق جميع الأشياء شبيهة به على قدر الإمكان. أنظر، زكريا إبراهيم، اعترافات أوغسطين، ص٦٦٢ .

ثانيـــا: تأتي عقيدة التثليث والتي أرسى قواعدها مؤتمر نقية بثمارها وها هو فيلسوفنا يحاول أن يكشف لنا كيف صدر الابن عن الأب

فيقول:" صدر بذلك النحو من كتلة كيانك النوراني"

والرجل يرفض تدخل العقل في فهم العقيدة ويرى أنها فوق العقل.

هكذا كان رأى القديس أوغسطين وهو يواجه حملة أريوس على التثليث الكاثوليكي، وقال إنَّ كل ما جاء في الأناجيل لا ينبغي للعقل أن يجادل فيه " لأن سلطانها أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشرى.[1]

يقول فشر تعليقا على هذا:

"إن حكمة الكنيسة المسيحية هدت آباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا معه منعاً من قديم العادات والتقاليد والمعتقدات، بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط وتطويع ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها"[2]

وإننا لنرى أن هذا المعتقد هو سمة كثير من القديسين الفلاسفة:

القديس توما الأكويني يقرر:

"أن الحقائق التي يقدمها الإيمان لا يقوى العقل على التدليل عليها، ففي استطاعة العقل أن يتصور ماهية الله، ولكنه لا يستطيع أن يدرك تثليث الأقانيم ومن دلل على عقيدة التثليث في الأقانيم حقر من شأن الإيمان"[3]

حتى الكنائس الشرقية تذهب إلى هذا الرأي، **فالقس باسيليوس يقول:** "إن هذا التعليم عن التثليث فوق إدراكنا، ولكن عدم إدراكه لا يبطله"

وزميله توفيق جيد يقول: "إن تسمية الثالوث باسم الأب والابن والروح القدس تعتبر أعماقا إلهية وأسراراً سماوية لا يجوز لنا

---

(١) توفيق الطويل، قصة النزاع بين الدين والفلسفة، ٨٣، وانظر سلسلة تراث الإنسانية/٦٤٨، ٦٦٢.

(٢) تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ١/٨٠.

(٣) توفيق الطويل، قصة النزاع بين الدين والفلسفة، ص٨٣.

أن نتفلسف في تفكيكها أو تحليلها أو أن نلصق بها أفكارنا من عندياتنا".[1]

وهو قول باطل وظاهر الفساد فقد وصفت الأناجيل المسيح بابن الإنسان، فكيف يكون ابن الله ومن كينونته؟

فما هو إلا تخبط الباحث عن الحقيقة السائر على أول طريق الهداية الإيمانية لمعتقد يقول عنه أنه معصوم وأنه من قبل الله-تعالى-.

أوغسطين يخطئ القائلين بوجود شرّ في الكون :

يقول: " وسمعتك اللهمّ ربّي وارتشفتُ قطرة عذبة من حقك، وأدركت لماذا يوجد أناس لا تعجبهم مبروءاتك ويزعمونك صنعتَ العديد منها كبناء السّماوات وترتيب النّجوم قسراً وضرورة، وأنك ما خلقتَها بل أوجدتَ من قبل في محلّ آخر ومن مصدر آخر، وإنّما جمعتَها وألّفتَ بينها ورتّبتها، وأنك بعدما هزمتَ أعداءك شدت سوراً للعالم ضامناً بذلك البنيان ألاّ يستطيعوا التّمرّد عليك ثانية. وأنك لم تصنع أو ترتّب بعض الكائنات الأخرى ككلّ الكائنات الجسديّة والأحياء المستدقة وما يتّصل بالأرض بجذور، بل أوجدها وكوّنها في أسافل الكون روح معاد وجوهر مغاير لم تخلقه وهو مضادّ لك.[2]

ويردّد أولئك الخُبل هذه التّرهات لأنهم لا يرون بروحك خلائقك ولا يتعرّفون عليك فيها "[3].

---

(١) مجدي مرجان، الله واحد أم ثالوث، ص ١١.

(٢) إن الأشياء العليا تتعلق على ما هو أسفل منها وتستعملها، لأن الكمالات الخاصة بأي مستوى الوجود هي أشد قوة في ذلك المستوى منه في المستوى الأعلى، وفي مستوى الحواس مثلاً إن الحشرات والحيوانات لها قوى الإحساس والحركة أحسن من الإنسان. وإن بعض كمالات الموجودات السفلى لا يوجد في المستويات العليا، ولكنها تخدمها. فإن الإنسان مثلاً يُحرز الغذاء والثياب والسكنة والنقل إلى أخره باستعمال الأشياء السفلى. فإذا إن كل الأشياء في العالم، حتى ترتيب الأجرام السماوية التي تسمح الحياة في الأرض، هي منظمة لأجل خير الإنسان، كما نسمع في الكتاب المقدس:

"على صنع يديك وليته، وكل شيء تحت قدميه جعلته" (مزمور ٨: ٨).

وكما قال الله تعالى في كتابه العزيز:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (سورة إبراهيم ١٤: ٣٢-٣٤).

(٣) الاعترافات، ١٣/٣٠.

أوغسطين يقول بزيف حرّية الاختيار الإنسانيّة :-

يقـــول:" وأنا الشّقيّ ماذا أحببت فيك يا سرقتي، يا جريمتي البشعة في تلك اللّيلة من سنتي السّادسة عشرة ؟ ما كنتِ شيئاً بهيّاً، فأنت سرقة.

لكن من غير الله الأحد حقيق بالتّقى، وهل ومتى وأين وكيف يستطيع كائن أن ينتزع أو يأخذ من سلطانه شيئاً ؟ ومن أبرأ منك وأبعد عن الظّلم ؟ فإنّما أنفسَهم يظلم الأشرار بسيّئات أعمالهم ؟.

الإسراف يتستّر بقناع السّخاء، لكنّك أنت موزّع كلّ الخيرات الأغنى والأسخى. الشّحّ يحبّ امتلاك المزيد والحال أنّك مالك كلّ الأشياء. حبّ التّميّز ينافس على الصّدارة، فمن يفوقك امتيازاً ؟

هكذا تزني النّفس لمّا تولي عنك وتبحث في ما سواك عمّا لا تجد نقيّاً صافياً إلاّ لمّا تعود إليك. زوراً يحاكيك كلّ من يبتعدون عنك ويطاولونك. لكنّهم حتّى بمحاكاتك بهذا النّحو يظهرون أنّك خالق الكون ولا سبيل بالتّالي إلى الابتعاد عنك تماماً. ماذا أحببتُ - إذن - في تلك السّرقة وفيم حاكيتُ ربّي ولو إفكاً وعدواناً ؟ أم زُيّن لي فعل ذلك ضدّ ناموسك زوراً، لأنّي لا أملك قدرة حقيقيّة على فعله، لأتظاهر أنا الأسير بحرّيّة كسيحة بفعل المحرّم بدون عقاب في محاكاة آثمة لقدرتك الواسعة"[1]

ويقول: " هوذا بين يديك ذاك العبد الآبق من سيّده المشتاق إلى الظّلّ. يا لنتن وبشاعة الحياة ويا لغور هاوية الموت! أأمكن أن أحبّ الحرام فقط لأنّه حرام ؟ "[2].

---

(١) حول حرّيّة الإنسان يتّخذ أغسطينوس موقفاً شبيهاً بنظريّة " الكسب " عند الأشاعرة القائلة بأنّ: " الإنسان يريد الفعل الذي يختاره ولكنّ التّنفيذ من الله خالق كلّ شيء وخالق حرّيّة الاختيار هذه في الإنسان وكذلك الفعل الذي تُنفذ بمقتضاه "، ويرفض نظريّة البيلاجيّين الشّبيهة بموقف المعتزلة والمؤكّدة على أن: " حرّيّة الاختيار أساس التّكليف، لكن دون إنكار الحرّيّة تماماً. فبنعمة الله يكتسب الإنسان الحرّيّة الحقيقيّة. أمّا المعرض عنه فحرّيّته وهميّة ".

(٢) الاعترافات، ١٠/١٣.

أولا: التأثر بالمانوية[1]

الثابت والمتغير[2] في الشريعة

---

(١) ماني: (٢١٦ ـ ٢٧٧/٢٧٤ م) ادّعى إتمام سلسلة الوحي من آدم إلى زرادشت وبوذا وعيسى، أسّس مذهباً يشترك مع المذاهب الغنوصية في القول بسقوط الرّوح إلى عالم المادة أصل الشّر، وإمكانيّة تحريرها منه بالرّهبنة والزّهد، زعم أنّ العالم مصنوع مركّب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة...وهما في النفس والصّورة والفعل متضادّان وفي الحيّز متحاذيان تحاذي الشّخص والظلّ.

أنظر الشّهرستانيّ، (الملل والنّحل)، ج١.

وللأول: " أعضاء خمسة جوّيّة: الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة، وخمسة أرضيّة: النّسيم والرّيح والنّور والماء والنّار، وللآخر: خمسة أعضاء: الضّباب والحريق والسّموم والسّمّ والظّلمة. وذلك الكون النّيّر مجاور للكون المظلم لا حاجز بينهما، والنّور يلقى الظّلمة بصفحته ولا نهاية للنّور من علوّه ولا يمنته ولا يسرته، ولا نهاية للظّلمة في السفلى ولا في اليمنة ولا في الميسرة ".

أنظر ابن النديم، (الفهرست).

وقد بلغ أوج انتشاره في القرن الرّابع م وأثر قليلاً في بعض المذاهب الإسلاميّة. وكانت كنيسته تتكوّن من خليفته ومعلمين وأساقفة وإبدالا ومجموع الأصفياء وعامّة المؤمنين.

(٢) تغيّر العدالة حسب الزّمان والمكان: يذكر هذا بنصّ لباسكال عن نسبيّة الأخلاق والعدالة البشريّة حيث ما هو عدل في جانب من جبال البرانس ظلم في الآخر. كذلك أجاز فقهاء الإسلام اختلاف الأحكام حسب المجتمعات في ما لم يرد فيه نصّ حتّى أنّ الشّافعيّ غيّر مذهبه لمّا ذهب إلى مصر، كذلك أكد القرآن على نسبيّة الشّرائع الإلهيّة في جانب منها، قال ـ تعالى ـ:

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ

يقول: " كنتُ فعلاً أجهل النظرة الأخرى التي هي الحقّ، وكما لو أستثار بمنخاس أوّيد آليّاً أولئك المضلّين الحمقى لمّا يسألونني عن أصل الشرّ، وهل الله محدّد بشكل جسماني وذو شعر وأظافر.

وهل يجب أن يُعَدّ بررةً متعدّدو الزّوجات[1] وقاتلو النفس البشريّة والمضحّون بالذبائح الحيوانيّة[2]. فأحتار ويتشوّش فكري من تلك الأسئلة لجهلي بتلك القضايا، وأتوهّم الاتّجاه نحو الحقيقة وأنا أبتعد عنها، لجهلي بأنّ الشرّ ليس سوى فقدان الخير إلى درجة العدم المطلق. وكيف لي أن أرى ذلك وأنا لا أرى إذاك بعينيّ أبعد من الأجسام الحسّيّة وبعقلي أبعد من أوهام ؟ كنتُ أجهل أنّ الله روح، ليس له أعضاء ممتدّة طولاً وعرضاً ولا كتلة لأنّ الكتلة يقلّ جزؤها عن كلّها، وإن تكن لا متناهية فهي في جزئها المحدود بحيّز معيّن أصغر منها في امتدادها اللاّنهائيّ، ولا توجد في كلّ مكان بكليّتها كالرّوح والله. وأجهل بالتّمام الجوهر الكائن فينا والّذي به نكون، ويخبرنا الكتاب أنّه على صورة الله"[3]

شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ).

سورة المائدة، الآية ٤٨.

(١) واتّخذوا عدّة زوجات: " تزوّج إبراهيم سارة وهاجر وترك سراري " تك ٢٥: ٦، " وأخوه ناحور بأكثر من واحدة " تك ٢٢: ٢٠-٢٤، " وترك جدعون ٧٠ ولداً " قض ٨: ٣٠-٣١، " ويعقوب الأختين ليئة وراحيل وأمتيهما زلفة وبلهة، وكذلك شاول وداوود الذي تزوّج ٩ " مل١/ ١: ١٩ و٢٥ ومل٢/ ٣: ٢-٥ و٧: ٢٣ و١١: ٤، " وترك ١٠ سراري " مل٢/ ١٥: ١٢-١٦.

وقد لمّح القرآن إلى ذلك في إشارته إلى حادثة انتزاعه زوجة أوريّا قال - تعالى -:

(إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) سورة ص، الآيات ٢٣ - ٢٤.

ولم يرد في الكتاب المقدّس تحديد لعدد الزّوجات لكنّ التلمود حدّده بأربع.

(٢) المسائل المانويّة: أصل الشرّ والتشبيه والطعن في أنبياء التوراة لأنّهم قاتلوا وقدّموا ذبائح، إذ تحرّم المانويّة قتل الحيوان: وقد ردّ عليهم أوغسطين في مدينة الله ١: ٢٠ بأنّ الله سخّر للإنسان الحيوان حيّاً وميّتاً.

(٣) الاعترافات، ٧/٣.

ثانيا : الإحتفاظ بالمانوية في انتظار وجود أفضل منها : -

يقول: " لذا ثبطت همتي لدراسة كتب المانويّة وزاد يأسي من علمائهم الآخرين. والحقّ أن الحماس الذي أظهرته قبل للإيغال في هذه الفرقة خبا، لا لأنفصل عنهم تماماً، بل نظراً لأني لم أجد أفضل من ذلك المذهب الذي زججت فيه بنفسي بنحو ما، قرّرت أن أقنع به مؤقتاً حتّى يتضح لي موقف أحقّ بأن أتبناه. هكذا أخذ فاوستوس ذاك الذي نصب للكثيرين " أشراك الموت " يفكّ بغير قصده أو علمه الشّرك الذي تلجلجت فيه. ففي خفيّ عنايتك ما تخلتْ عن نفسي طوال تلك الفترة يداك يا ربّ[1] وما انفكّت أمّي ليل نهار تقدّم لك بدموعها دم قلبها قرباناً لأجلي[2]. وتصرّفتَ معي وفق خططك العجيبة. أجل أنت اللّهمّ الذي صنعت ذلك، فإنّ " الرّبّ يقوّم خطوات الرّجل ويرضى عن طريقه ".

ومن يسعفنا بالخلاص سوى يدك التي تصلح ما صنعتَ ؟"[3]

محاولته كشف أخطاء المانوية:

---

(١) هنا أراد أوغسطين أن يعود إلى ميله النفسي الخاص بالتنسك والزهد وإلى ما بدأ يعرف من الكاثوليكية عن طريق والدته، فأراد في اعترافه هذا أن يسند الأمر كله لله - تعالى - في الهداية، ولم يكتف بذلك بل راح يضفي على الله - تعالى - من خلال هذا النص بعض صفات الكمال الواجبة للذات العليا، وهو هنا يتمشى مع ما جاء في القرآن الكريم في ما يشبه اعترافه هذا حيث قال الله - تعالى -:

(هُوَ الأوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ فِي سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). سورة الحديد، الآيات ٣-٤.

(٢)القول بأن الله - تعالى - يقبل القربان ليكفر به الذنوب أو ليبسط به الهداية للعبد هو قول شائع في بني إسرائيل يهوداً ونصارى ، وقد تكفل القرآن الكريم بالرد على هذا الادعاء، فقال الله - تعالى -:

(لن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ المُحْسِنِينَ). سورة الحج، الآية ٣٧.

(٣) إسناد الهداية لله - تعالى - وهو يتمشى مع قول القرآن الكريم:

(فَإن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أنَّمَا يَتَّبِعُونَ أهْوَاءهُمْ وَمَنْ أضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ* ....* إنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ) سورة القصص، الآيات ٥٠ - ٥٦.

يقول أوغسطين في ذلك:

" إذاك ركّزت فكري على إمكانيّة الإبانة ببعض الأدلّة الدّامغة على خطأ المانويّة. لو كنت أستطيع إذاك تصوّر جوهر روحانيّ لتهافتت فوراً كلّ خزعبلاتهم وقذفتُ بها خارج فكري،[1] لكن لم أكن أستطيع. لكن فيما يتعلّق بعالمنا الجسمانيّ وكلّ الطبيعة القابلة لإدراك حسّنا الجسديّ، صرت بطول التّفكير والمقارنة أجد أنّ فلاسفة كثيرين توصّلوا إلى آراء أرجح[2]. هكذا في شكّي في كلّ شيء على طريقة الأكاديميّين[3]، كما كان يُنظر إليهم، وتذبذبي بين شتّى المواقف"[4].

ثالثاً: أوغسطين يتخلى عن المانوية نهائياً: -

يقول أوغسطين في ذلك:

"قرّرت التّخلي عن المانويّة اقتناعاً بأنّ لا مجال في خضمّ شكّي للبقاء في تلك الطّائفة الّتي بتّ أفضّل عليها عديداً من الفلاسفة أرفض مع ذلك مطلقاً، لخلوّ فلسفتهم من اسم المسيح المنقذ، أن أكِل لهم شفاء سُقام نفسي. لذا قرّرت البقاء كمرشّح للتّنصّر في الكنيسة الكاثوليكيّة على دين أبويّ حتّى يتّضح لي أمر ثابت أوجّه إليه مسيري"[5].

العقيدة الإيمانية في الكتاب المقدّس فوق العقل:

"مع ذلك بدأتُ أفضّل المذهب الكاثوليكيّ إذ أجد نفسي مطالباً هنا بنزاهة ودون خداع بالتّصديق بأمور لم يتمّ إثباتها سواء لأنّ بالإمكان إثباتها وربّما كنتُ قاصراً عنه أو لأنّها غير قابلة للإثبات أصلاً، -يتلطف الرجل هنا ولا يتعجل الحكم بأن هذه المعتقدات لا يقرها عقل (كالأقانيم مثلاً) ويستخدم لفظ ربما الذي يفيد التردد في الحكم- على الهزء هناك

---

(١) يقرر الرجل في هذه الفقرة: أنه كان لا يستطيع أن يؤمن بغير المحسوس لصعوبة تصوره للجوهر الروحاني الخالص، وإننا لنرى أنها بقايا باقية من آثار اعتناقه للمانوية التي مازال يريد التخلص منها.

(٢) هكذا يقول الرجل: أنه راح يبحث عن الحقيقة في نتاج الفلاسفة، كما يقرر أنه وجد أن بعض الفلاسفة توصلوا في آرائهم إلى ما هو أفضل مما عند المانوية.

(٣) اعتراف آخر من الرجل بأنه في تلك الفترة كان معتنقاً لمذهب الشك عن طريق اعتناقه طريقة الأكاديميين في ذلك.

(٤) الاعترافات، ١٤/٥.

(٥) نفس المرجع والصفحة.

من سلامة طويّتي بوعدي سفهاً بالعلم، ثمّ مطالبتي بالتّسليم بخرافات كثيرة لا يقبلها العقل بدعوى أنّها ممّا لا يمكن إثباته"[1].

ويحاول الرجل الدفاع عن معتقده فيقول:

"ثم إنك اللّهمّ رويداً رويداً لامستَ وسوّيتَ بيدك الرّفيقة الرّحيمة قلبي، وإذ اعتبرتُ الوقائع التي لا تحصى وأصدّق بها دون رؤيتها، والّتي لن نفعل شيئاً في هذه الحياة لولا تصديقنا بها، وأخيراً بأيّة ثقة وطيدة أسلّم بأنّي وُلدتُ من أبويّ وهو ما لا علم لي به إلاّ بالسّماع[2]، وألاّ أستمع إلى من قد يقولون لي:

"وما أدراك بأنّ تلك الكتب ألقاها إلى الجنس البشريّ روح الله الواحد الحقّ الصّادق ؟ " ذاك بالذّات ما كان يجب التّصديق به بالوجه الأتمّ، فما استطاع عنف الانتقادات المغرضة في كثير ممّا قرأتُ من كتب الفلاسفة المتنازعين أن يمنعني أبداً في الماضي من الإيمان بوجودك أيّا كانت ماهيتك الّتي أجهل وبأنّ تدبير شؤون البشر شأن يعود لك.[3]

---

(١) يريحنا الرجل من جدال طويل، ويقرر أنهم طالبوه بالتسليم بهذه الأشياء لأنها لا يمكن إثباتها بالعقل، ولقد استمرت هذه العقيدة في الكنيسة حتى الوقت الحاضر جاء من القس إلياس مقار في سبيل دفاعه عن عقيدة التثليث: بأنه يؤمن بها لأنه لا يفهما.

أنظر: كتاب نساء الكتاب المقدس، ص ١٤٣.

(٢) يحاول الرجل ذكر بعض الأقيسه التي يرى أنها بمثابة البرهان على إيمانه بأشياء لا يفهمها ولا تثبت عقلاً، ولكنها أقيسه لا ترقى لدرجة الدليل، لأنه أهمل خاصية التواتر في النقل.

(٣) الاعترافات ، ٥/٦.

وتحته مباحث:

المبحث الأول:

براهين وجود الله عند أوغسطين.

المبحث الثاني:

صفات الله عند أوغسطين.

المبحث الأول
أوغسطين وبراهين إثبات وجود الله

أوغسطين وبراهين إثبات وجود الله تعالى:

إن قضية الألوهية لتأتي في طليعة المعضلات الفلسفية العريضة التي شغلت أذهان الفلاسفة والمفكرين قروناً طويلة، لا سيما ما يتعلق بتصور الإله وصفاته، حيث تفاوتت التصورات المنحرفة، فأوغل بعضها في التجريد حتى وصل إلى درجة المعميات والألغاز المبهمة، وسفل بعضها في التجسيم حتى هبط إلى مستوى الجمادات والمخلوقات التافهة، وقد كانت البشرية في غنى عن هذا التخبط والضلال لولا أنها ضيقت على نفسها وحاولت بلوغ الحقيقة من غير طريقها، ولم تكن بحاجة إلى الخوض في هذه القضية بتاتاً لو أنها استلهمت الفطرة الكامنة في أعماقها واستقت معرفتها بالله من طريق الوحي الإلهي نفسه، واستبدلت بشطحات الفلاسفة وتحريفات الكهان تعاليم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

ولو جاز أن نتلمس عذراً لأحد من التائهين في هذه القضية، لالتمسناه للأمم التي انقطع عنها الوحي فترات طويلة، أو للذين لم تقع أعينهم على شيء من آثار الأنبياء، أما إذا كان المتخبطون ممن يستطيعون أن ينعموا بنور الحقيقة لكنهم آثروا عليه الإدلاج في الظلمات، فما عذرهم حينئذ ؟

لكم تكون الخسارة فادحة لو أن عالماً من جهابذة الطب كتب أروع بحث علمي في فنه وأوصى خادمه بحفظه، لكن الخادم عبث به فقدم وأخر وشطب وأضاف حتى حوله إلى خزعبلات سخيفة.

البرهان الأول:

"الله منزّه عن الفساد"

يقول: " هكذا كنتُ أجِدُ لأجد حقائق أخرى كما وجدتُ قبل أنّ الممتنع عن الفساد أشرف ممّا يقبل الفساد[1]، ومن ثمّة أقرّ بأنك -أيّاً كان جوهرك- منزّه عن الفساد[1]".

---

(١) قياس منطقي استقرائي أثبت عن طريق الضد أن الله - تعالى - لا يقبل الفساد.

إن دليل أوغسطين هذا يمكن تقسيمه لعدد من الأدلة المنفصلة في المقتطف السابق من نص الاعترافات يثبت وجود الله تعالى بتنزهه عن الفساد، ثم يمنع قبوله الفساد من أي جهة فيقول: فالله لا يأتيه الفساد من أيّة جهة: لا من إرادة ولا من ضرورة ولا من عرَض[٢].

ولِم الإسهاب في ذكر أسباب امتناع الجوهر الإلهيّ عن الفساد؟!، وهو لو كان كذلك[٣] لما كان اللهَ ؟ ".

في لحظة صفاء نفس يقول: بأننا لسنا في حاجة لإقامة الدليل على عدم قبول الجوهر الإلهي للفساد وهو لو كان كذلك لما جازت له الألوهية.

ثم يأتي أوغسطين بشق آخر من الدليل فيقول:

فما أمكن ولن يمكن لنفس أبداً تصوّر خير منك أنت الخير الأعظم والأفضل.[٤]

وعليه:

يرى أوغسطين أن اكتشاف الذات للحقائق الخالدة في النفس هو همزة الوصل لمعرفة الوجود الإلهي فإذا كان المعلول وهو هنا الحقائق الخالدة لا بد أن يكون من جنس علته، فإذا كانت هذه.... الحقائق أزلية، فلا بد وان يكون هناك موجود أزلي أبدي هو الذي خلق هذه الحقائق وأودعها في النفس، وهذا الموجود هو الله.

وإذا كانت الماهية، والوجود شيء واحد، فإن الماهية التي يمكن تصورها لله في النفس تتطلب الوجود، ومن ثم فان فكرتنا عن الله في نفوسنا تقتضي بالضرورة وجوده، فالله - إذن - موجود.

---

(١) نتيجة سليمة للاستقراء، حيث وصل من المقدمات المستخدمة إلى أن الله - تعالى - لا يقبل الفساد.

(٢) منع أن يقبل الله - تعالى - الفساد من أي ناحية منطقية ولا من الموجهات، فهو لا يقبل الفساد لا بالإرادة ولا بالضرورة ولا بالعرض، فلا تحل فيه أعراض تجعله قابل للفساد.

(٣) دفاع عام وشامل خلصت نتيجته في أن الله - تعالى - لا يقبل أي نقص لأنه لو حل فيه النقص لما جازت له الألوهية، وعليه فالله - تعالى - منزه عن كل نقص.

(٤) الاعترافات، ٤/٧.

البرهان الثاني:

"إثبات أن الله مغير كل متغير"

يقول أوغسطين " يا من أنت العليّ الودود العزيز القدير البرّ الرّحيم، والخفيّ الجليّ البهيّ القويّ، الثّابت والممتنع عن الإدراك، المنزّه عن التّغيّر ومغيّر كلّ شيء، المنزّه أبدا عن الجدّة والبلى ومجدّد كلّ شيء ومورد المتكبّرين البلى وهم لا يشعرون، دائم الفعل وأنت في راحة دائمة، تجمع ولا يعوزك شيء، تحمل وتملأ وتحفظ، تخلق وتُقيت - قدر لهم أقواتهم-لاالزوم وتبحث -تخلقهم على الوجه الذي ترضى- ولا يعزب عنك شيء، تحبّ ولا تئقد وجدا، تغار بلا انكدار، تأسف بلا ألم، تغضب في صفاء، تغيّر أعمالك ولا تغيّر قضاءك، تتلقّى ما تجد وأنت لم تضعه أبدا، لا يمسّك فقر قط ويفرحك الرّبح، لا يصمك بخل وتطلب الربي[1]"

وها هو يقيم دليله على التغير، فالتغير عند أوغسطين يتم بالمعنى الأرسطي من ضد إلى ضد، فإذا كان التغير في الوجود يتم بان يتحول الشيء إلى ضده، فإن هذا التغير ليس ذاتيا في الشيء نفسه، " المنزّه عن التّغيّر ومغيّر كلّ شيء "، أعنى أن الشيء لا يمكن أن يمنح التغير لذاته، لأن ذلك مستحيل، لأنه ليس للشيء حاجة في إعطاء نفسه ما هو متضمن فيه من قبل،

"فكيف لها بأن تكون بنحو ما لتتّخذ تلك الصّور المرئيّة والمتّسقة، وكيف لها أن تكون بنحو ما، لو لم تكن بك أنت الذي منك كلّ الأشياء قدر ما هي كائنة؟"[2]

ومن ثم فإن الصورة التي تغير لها الشيء، لا بد أن يكون من موجود غيره، هو الذي أوجد له هذه الصورة الجديدة.

"هذا العالم المتغيّر حيث تتجلى قابلية التّغيّر التي يمكن فيها إدراك وعدّ الزّمان، فقوام الزّمان تغيّر الأشياء، إذ تتغيّر وتتحوّل صور الأشياء التي مادّتها الأرض اللامرئيّة التي ذكرت سابقا"[3].

---

(١) أوغسطين، كتاب الاعترافات، ٤/١.
(٢) المرجع السابق، فصل الإبداع الإلهي، ٧/١٢.
(٣) نفسه /٨/١٢

وكما قال أهل السنة في دليلهم على إثبات وجود الله تعالى مستمدين الدليل العقلي من النقلي في قوله تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[1]

وقد استخدموه في الأنفس في الأطوار التي يمر بها الجنين متسائلين من الذي ينقل النطفة إلى العلقة ومن الذي ينقلها إلى المضغة.

حتى أن صاحب المواقف يقول: "لا شك أن من رأى بنيانا علم أن وراءه بانيا"[2]

ولا يعني ذلك إلا أن هناك علة أو خالقا هو الذي يمنح الصورة، وهذه العلة الإلهية هي الله.

البرهان الثالث:

" نظام وجمال الموجودات دليل على وجود الله "

يقول أوغسطين: "نشكرك أيها الربّ! نرى السّماء والأرض، سواء كانتا جزئي الكون العلويّ والسّفليّ، أو الخليقتين الرّوحيّة والماديّة.

نرى النّور الذي خلقته وفصلته عن الظلام لتجعله زينة لهذين الجزأين اللذين تتألف منهما كتلة العالم الكليّة أو الخليقة جمعاء.

ونرى جلد السّماء، سواء كان جسم العالم ألبدئي الكائن بين المياه الرّوحيّة العلويّة والماديّة السّفليّة، أو جوّ الهواء الممتدّ فوقنا والمدعوّ أيضا سماء، حيث تسبح الطّير صافات بين المياه المطلّة فوقها في شكل بخار والنّازلة طلاً في اللّيالي الصّافية وتلك المنسابة في هيئة أكثف على الأرض.

نرى جمال المياه المتجمّعة في أرجاء البحر الشّاسعة والأرض اليبس جرداء أو مزدانة في صورة بهيّة منسّقة وقد أنجبت أبًا وقضبا.

نرى النّيّرات ساطعات فوقنا، الشّمس آية النّهار تكفيه والقمر والنّجوم تؤنس وحشة الليل، وكلها آيات توقع وتؤمّر مجرى الزّمان.

---

(١) سورة فصلت، الآية، ٥٣.

(٢) عبد الرحمن الإيجي، المواقف، الموقف الخامس، شرح أحمد المهدي، ص ٢٢.

نرى العنصر الرّطب في كلّ مكان يعجّ بالأسماك والوحوش والمائيّة وذوات الأجنحة، فمن تبخّر المياه تكاثفت ثخانة الهواء التي تحمل الطير في طيرانها.

نرى أديم الأرض مزدانا بالحيوانات البرّيّة، والإنسان "على صورتك ومثالك" يفضّل كلّ الحيوانات العجماء بصورتك ومثالك، أي بملكة العقل والإدراك.

وكما يوجد في نفسه جزء يسيطر بالتّفكير وآخر يخضع ممتثلا له، كذلك نرى المرأة خُلقتْ جسمانيًا للرّجل، فمع أنّها تملك بفكرها لا شكّ طبيعة عقليّة مثله، هي خاضعة من حيث جنسها لجنس الرّجل كما يخضع النّزوع إلى الفعل للعقل فينتج من ذلك السّلوك الأريب.

نرى كلّ هذه الأشياء حسنة فرادى،وحسنة جدًا مجتمعة"[1].

وهو هنا يعتمد على المعنى الغائي في الوجود.

فإذا كان للوجود نظام وجمال.

فان هذا النظام والجمال لا يصدران إلا عن الله الموجد الفنان.[2]

ولا شك أن دليل العناية والغائية والعلية كلها موجودة في الفلسفة الإسلامية بقسميها في المشرق والمغرب.

---

(١) أوغسطين، الاعترافات، باب عظمة الله، ٣٢/١٣.

(٢) أتين جيلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، غرض وتعليق إمام عبد الفتاح، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية١٩٧٤م، ص ٩٠ وما بعدها.

المبحث الثاني
صفات الله عند أوغسطين

صفات الله عن أوغسطين

أوغسطين و كنه المسيح

يقول: " لكنّي كنت أفكّر بنحو مختلف وأعدّ ربّي المسيح رجلاً فائق الحكمة لا يمكن أن يُعدل به أحد ويبدو لي خاصّة أنّه بولادته من عذراء[1]، أمّا أيّ سرّ مكنونٌ في " الكلمة الّذي صار جسدا " فلم يكن يخطر على بالي[2]. كنت أعلم فقط ما نقلت عنه الأناجيل، من أنّه أكل وشرب ونام ومشى لم يتّصل بكلمتك إلاّ بنفس وعقل بشري[3].

إن كُتب ذلك عنه خطأ فكلّ النّقل معرّض للاتّهام بالكذب، ولن يبق في تلك الكتب خلاص للجنس البشريّ بالإيمان. وبما أنّ الكتب صحيحة، كنتُ أرى في المسيح إنساناً بأتمّه:

لا جسم إنسان فقط أو نفساً مع الجسم بلا عقل، بل إنساناً بالمعنى التّامّ وأحكم بأنّه فُضّل على الآخرين لا كالحقّ مشخّصاً بل بجودة طبيعته الإنسانيّة الفائقة واتّصال أتمّ بالحكمة[4].

---

(١) الرجل يعترف بأنه كان قبل أن يصير كاهناً، يعتقد بأن المسيح رجلاً وبالأخص لولادته من العذراء، " وهذا الاعتراف هو الاعتراف الصحيح والمطابق لبشرية المسيح وحقيقة خلقه.

(٢) يجهل ما عليه قول واعتقاد المسيحية في حقيقة عيسى وكهنوته.

(٣) كان يعتقد في المسيح الاعتقاد الذي ذكرته الأناجيل من أنه بشر يمشي في الأسواق ويأكل الطعام وينام ...إلخ.

(٤) يقول أوغسطين في موضع آخر ما يمكن أن يؤخذ جواباً على رؤيته للمسيح بأنه بشر: لذلك أرى مستحيلاً مولد تلك الطبيعة من مريم العذراء دون مخالطة الجسد ولا أرى كيف يخالطها ولا يدنّسها ـ حسبما كنت أتمثّلها ـ لذا خشيت الإيمان بتجسّده مخافة الاضطرار إلى الاعتقاد في تدنّسه بالجسد. الآن سيبتسم منّي روحيّوك بسماحة ووداده، إذ يقرؤون خلطي بذلك النّحو بين المفاهيم لكن كذلك كنتُ يومئذ.

أمّا أنا فأعترف أنّي تعلمت بعد ذلك بمدّة تمييز حقيقة الكاثوليكيّة[1] من ضلالة فوطينوس[2] في مسألة كيف صار الكلمة جسداً.

فلا شكّ أنّ إدانة البدع تُبرز حقيقة موقف كنيستك ومضمون العقيدة الصّحيحة "إذ لا بدّ من البدع ليظهر لمزكّون"[3].

يقول في الاعترافات :-

" إنّ جميع الذين لم يعرفوا الله هم حمقى من طبعهم لم يقدروا أن يعلموا الكائن من الخيرات المنظورة ".

ويقول: " لكنّي لم أعد في تلك الحماقة، بل تجاوزتها، وبشهادة الكون كلّه وجدتُك أنت خالقنا[4] وكلمتك الذي هو إله عندك وإله واحد معك به خلقتَ كلّ شيء"[5].

كما أنه يوجد نوع آخر من الكفرة.

"لمّا عرفوا الله لم يمجّدوه ولم يشكروه كإله"[6].

"وفي هذا الضّلال وقعتُ أنا أيضاً".

و" يمينك عضدتني "، سحبتني من هناك فوضعتني حيث أستطيع التّماثل للشّفاء فقد قلت للنّاس:

---

(١) الكاثوليكيّ: كلمة من أصل يونانيّ تعني الجامع وهي كتسمية أهل السّنّة والجماعة في الإسلام. ونفس الكلمة هي أصل تسمية كبير النساطره بالجاثليق.أنظر قاموس الكتاب المقدس، ١١٣.

(٢) فوطينوس: من غلاطية، أسقف سرمنيوم (يوغسلافيا)، كفّرت آراؤه حول المسيح، إذ اعتبر عيسى مجرّد إنسان، وربّما أنكر الولادة من عذراء. تاريخ الآباء،٣/ ٦٢

(٣) الاعترافات، ١٩/٧.

(٤) الله هو الخالق لما دونه من أشياء وعوالم، ولكننا لم نر تميز بين الله الخالق وبين الإله عيسى وهذا ما يؤخذ على أوغسطين وكاثوليكيته.

(٥) الخطاب هنا واقع لله الرب الخالق فأين موقف الإله الكلمة التي يعترف أوغسطين أن الله خلق الخلق بواسطته، ويقرر حسب عقيدته أنه أيضاً إله عند أبيه، ولنسأل أوغسطين: كيف يكون الله واحد أحد بعد هذا الإقرار ؟، وكفى بها شهادة من رجل دين وفيلسوف مسيحي.

(٦) من الملاحظ على هذا القول أن: معرفة الله لا تكفي، كما تدّعي الفلسفة الأفلاطونيّة هنا، ولا تعفي من العبادات (كما كان مثلاً يتصوّر فكتورينوس قبل دخوله في الكنيسة).

" ها أنّ خشية الله هي الحكمة " وكذلك:

" لا ترغب في أن تظهر حكيماً ".

" فقد زعموا أنّهم حكماء فصاروا حمقى ".

ولقد وجدت " اللؤلؤة الحسنة[1]

وكان عليّ أن أبيع كلّ شيء وأشتريها وبقيت أتردّد"[2].

وهكذا ينهي أوغسطين حديثه عن الكنه ليبدأ بالحديث عن الصفات الواجبة لله -تعالى- ونراه يتحدث من خلال الاعترافات أحيانا عن صفة معينة محددة وأحيانا أخرى يجمع في نص واحد أكثر من صفة فلننظر ماذا جاء في الاعترافات.

يبدأ أوغسطين الحديث عن الصفات الواجبة لله -تعالى- فيقول في إثبات صفة القدرة:

" لكن لم أكن بعد أرى سرّ ذلك الجمال الرّائع في صنعك أنت القدير صانع المعجزات وحدك"[3].

يتخذ أوغسطين من العناية والجمال في صنع المخلوقات الذي يصفه بالرائع ومن حدوث المعجزات ومن عدم مقدرة غير الله على الإتيان بها أدلة بينة على إثبات القدرة لله تعالى.

وها هو ذا يتحدث عن المخالفة للحوادث مع بعض الصفات في هذا المقام فيقول:

"ألا يجب فهم قولك إنّك خلقتَ الإنسان على صورتك بنحو يدفع إلى الظنّ بأنك محدود بملامح الجسم الإنسانيّ"

ها هو أوغسطين يدافع عما جاء في التوراة من أن الله خلق الإنسان على صورته وهيئته، ويقول إن هذا النص لا يفيد الظن بمحدودية الله تعالى.

"رغم غياب فكرة لديّ ولو هزيلة وغامضة عن ماهية الجوهر الرّوحانيّ"

---

(١) " اللؤلؤة الحسنة ": كناية عن ملكوت الله، إنجيل متى ١٣/ ٤٥.

(٢) الاعترافات، ٢٠/٧.

(٣) أوغسطين، الاعترافات، ١٥/٩.

يقول مجددا: إنه رغم ضعف وقلة ما يعرفه عن الجوهر الروحاني إلا أنه يراه خارج إطار التجسيد والتجسيم.

خجلتُ مع ذلك في فرحي من نباحي طوال تلك السّنين لا ضدّ العقيدة الحقّه، بل ضدّ أوهام اختلقتها أفكار التّجسيد.

يواصل أوغسطين إثبات المخالفة لله تعالى وأنه انتابه الخجل أنه يوما ما أراد أن يقول بعقيدة التجسيد أو بالدفاع عنها وها هو يعترف ببطلانها ويقول أنها أوهام.

لقد تسرّعتُ وكفرتُ إذ عرضتُ وانتقدتُ عقيدة كان يجب أن أتعلّمها بالبحث الجادّ.

لكنك أنت العليّ والقريب منّا،

صفتان جديدتان أوغسطين إثباتهما والاعتراف بهما وهما لا يتنافيان مع الإسلام في ذلك، إذ أن قرب الله من الإنسان يؤكّده الإسلام، يقول الله -تعالى- : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[1]

وقال -تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[2]

الظاهر والباطن

صفتان قديمتان من صفات الكمال لله - تعالى - يحاول أوغسطين إثباتهما والاعتراف بهما وهما لا يتنافيان مع ما يقول به الإسلام في ذلك، حيث جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3]

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٦.
(٢) سورة ق، الآية ١٦.
(٣) سورة الحديد، الآية، ٣.

أوغسطين ينفي تركيب الذات من أعضاء:-

" غير المشتمل على أعضاء أكبر وأخرى أصغر "[1]

هذا هو في تنزيه عام لمعبوده ينفي عنه التركيب و الأعضاء لا كبيرة ولا صغيرة لآن التركيب يعني الافتقار والاحتياج وهو ينفيه، وهذا يتمشى مع ما جاء في القرآن الكريم في ذلك حيث؛

يقول الله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2]

الكائن كلياً في كلّ مكان وغير الكائن في أيّ مكان، لستَ قطعاً هذا الشكل الجسمانيّ، وإن خلقتَ على صورتك الإنسان وهو ذا من رأسه إلى قدميه متمكّن "[3].

ويتحدث عن علم الله -تعالى- :

فيقول: "لم يسبق علم به وما الذي لا يتمّ بدون سابق علمك أنت الحفيّ بكلّ شيء ؟

ولا شيء يوجد إلاّ لأنّك تعلمه "[4].

أثبت أن علم الله تعالى مخالف لعلم البشر، وأنه العالم بكل شيء صغير كان أم كبير، وأنه لا يكون شيء في هذا الكون إلا بعلمه تعالى، بل لا وجود لشيء خارج علمه تعالى، وهذا يتمشى مع المنطق القرآني ومع ما يثبته القرآن الكريم.

---

(١) أوغسطين، الاعترافات، ٣/٦، ص ٤.
(٢) سورة الشورى، الآية، ١١.
(٣) يقول أن الإنسان مخلوق في دائرة الإمكان فهو بين الوجود والعدم.
(٤) انبثاق الأشياء من علم الله:
نجد نفس الفكرة في الفلسفة الإسلاميّة.
وعند توما الأكويني:
" علم الله علّة الأشياء لأنّ علمه بكلّ الخلائق علم الصانع بالأشياء التي يصنعه ". الخلاصة اللاهوتيّة، ١٢/٥.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا. يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2]

ويتحدث عن الطابع المطلق لكينونة الله وعلمه وحياته :-

فيقول: "فكما أنك الكائن المطلق، أنت وحدك تعلم، لأنك تكون بلا تغيّر، وتعلم بلا تغيّر، وتحيا بلا تغيّر، وكينونتك تعلم وتريد بلا تغيّر، وعلمك يكون ويريد بلا تغيّر، وإرادتك تكون وتعلم بلا تغيّر.

يشم من حديث الرجل أنه يخاف من الوقوع في القول بحلول الحادث في القديم؛ أو ما ينتجه من عرضية القول بتعدد القدماء، فاحترز الرجل ناحيا منحى المعتزلة في القول بالأحوال لا الصفات فهو يقول:

عالم وعلمه نفس ذاته وحي وحياته نفس ذاته طمعا في التنزيه ولكنه طمع يؤول بصاحبه إلى التعطيل.

لا تستحبّ أن يعلم نورك الذي لا يدركه التّغيّر، كما يعلم ذاته، المتغيّرُ المستنير به.

لذا فإنّ " نفسي كأرض مجدبة "، وكما لا يمكنها أن تستنير بذاتها كذلك لا يمكنها أن تشبع من ذاتها.

لأنّ عندك ينبوع حياة وبنورك نعاين النّور"[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآيات، ٥٩- ٦٠.
(٢) سورة سبأ، الآية، ٣.
(٣) الاعترافات ١٦/١٣.

"لكنّ بعدما أخذتَ رأسي وأنا غافل فباركته وأغلقتَ عينيّ"

ينوه أوغسطين في بداية حديثه عن صفة البقاء بأن الهداية فيما وصل إليه إنما هي من قبل الله تعالى الذي أخذ بيده وأغلق عينه عن أفكار التجسيد والباطل المصاحب لها.

لتصرفهما عن النظر إلى الباطل "،

أن صرفه عن الباطل كان بواسطة الكشف والإلهام الرباني.

تخليتُ قليلاً عن ذاتي وهجع جنوني،

أي لاذ بمقام القرب من الله تعالى، فأنس به وارتاحت نفسه.

وأفقتُ فيك فرأيتُك لا متناهياً لا كما توهمتُ سابقاً ولم تك رؤيتي تلك مستمدّة من حسّ الجسد "[1].

وانتهى من حالة الكشف بأن الله تعالى غير متناه باق بقاء سرمدي ذاتي، وهو ما يطابق ما جاء في القرآن الكريم:

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ*وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[3]

(١) أوغسطين الاعترافات، ٩/١١.
(٢) سورة القصص، الآية، ٨٨.
(٣) سورة الرحمن، الآيات، ٢٦-٢٧.

النفس عند أوغسطين

من خلال كتاب الاعترافات يتضح لنا أن أوغسطين يقول أحيانا باتحاد النفس والروح.

" فما كنتُ إذاك أعرف محبّتك ولا أتصوّر أعلاقا غير الجسديّة. أوَ ليست النّفس اللاّهثة وراء تلك الصّور فعلا "تزني" بعيدا عنك و"تعتمد على الأكاذيب وترعى الرّياح"؟

وهل يعني سوى ارتعا الرّياح أن نرعى تلك الأرواح الّتي تجد في غيّنا مسرّة ومسخرة؟[1]

ويقول أيضا :-

" وألاحظ في تلك الوحدة وفي هذه الانقسامَ، كان يبدو لي أنّ تلك الوحدة جوهر النّفس العاقلة وطبيعة الحقّ والخير الأعظم"[2]

وفي تلقيهم المعلومات من الحواس يقول:

"هكذا ارتقيتُ بالتّدريج من الأجسام إلى النّفس التي تدرك بالجسم، ثمّ منها إلى قوّتها الباطنة التي تنبئها حواسّ الجسم بالأشياء الخارجيّة." [3]

---

(١) أوغسطين، الاعترافات، ٢/٤

(٢) أوغسطين، الاعترافات، ١٥/٤.

(٣) نفس المرجع، ١٧/٧.

ويقـول: " كانت تقدّم لي في تلك الأغنية أيضا أوهام برّاقة حبُ تلك الشّمس الحقيقيّة على الأقلّ للعيون أفضلُ من أكاذيبها التي تخدع الرّوح من خلال العيون".[1]

وأخرو يقول: إن النفس غير الروح ولكل وظيفته الخاصة.

"أمّـا الـنّفس الحيّة فتجد في الأرض أصلها إذ لا جدوى لغير المؤمنين في الزّهد في مستحبّات هذه الحياة، لتحيا فيك أنفسهم التي كانت ميّتة لمّا كانت تعيش في الملاذ- الملاذ المميتة يا ربّ، فأنت وحدك اللذّة المحيية للقلب الطاهر"[2].

ويقول عن الروح:

"أيضا لعجزي عن تمثّل الرّوح إلاّ كجسم لطيف ينتشر مع ذلك في حيّز المكان"[3]

ولكنـي وعلى ضوء دراستي للمسيحية أرى أنهما يطلقان غالبا بمعنى واحد إلا عند الحديث عن الإقنوم الثالث -روح القدس- فإن المعنى يختلف.

لـذا تـرتبط مـشكلة الـنفس عـند أوغـسطين بمـشكلة الألوهـية والوجود فالبداية عند أوغسطين كانت من معرفة الذات ومن معرفة الذات استخلص بقية الحقائق الأخرى.

والنفس عنـده :-

جوهر لا مادي خالد والإنسان إنما يدرك ذاته عن طريق الفكرة، والذات موجودة ووجودها ليست عن طريق الذاكرة، فالذاكرة هي التي تؤكد لنا وجود جوهر مستقل هو الذات، وهو المركز والمصدر لكل ما يمر بالنفس من أحوال، ولما كانت النفس، جوهرا، فعن طريقها تكون المعرفة، وفي ذلك يقول أوغسطين:

" كـذلك الـنّفس، الّتـي هـي حـياة الأجسام؛ فأفضلُ وأثبت مـن الأجسام حياةُ الأجسام"[4].

---

(١) المرجع السابق، ٦/٣.
(٢) أوغسطين، الاعترافات، ٢١/١٣.
(٣) نفس المرجع، ١٠/٥.
(٤) نفس المرجع، ٦/٣.

وعلى احتمال أن النفس غير الروح عنده فهو يقول عن الروح:

"ثمّ وجّهت نظري إلى طبيعة الرّوح لكنّ فكرتي الغالطة عن الرّوحانيّات لم تتح لي رؤية الحقّ. كان يتجلى لعينيّ قويّا وضّاحا فأحوّل فكري المختلج عن اللامحسوسات إلى الخطوط والألوان والأجسام، ولعجزي عن رؤيتها في روحي أظنّ أنّي لا أستطيع رؤية روحي"[1].

ويقول أيضا:-

" لعجزي عن تمثّل الرّوح إلاّ كجسم لطيف ينتشر مع ذلك في حيّز المكان "[2]

ولعل أهم ما يتصل بالنفس يتركز في مشكلتي صلة النفس بالدين وخلود النفس.

وسوف نتكلم في هذا النطاق على أساس أن النفس هي الروح.

أولا :صلة النفس بالجسم:-

أما عن صلة النفس بالجسم ، فان أوغسطين يميل إلى المعنى الأفلاطوني[3]،حيث يقول:

---

(١) أوغسطين، الاعترافات، ٤ /١٥.

(٢) نفس المرجع، ١٠/٥.

(٣) الموقع الوسط: النفس حسب أفلاطون "في عالم الرّوح العقل الأخير ولكنّها العقل الأوّل بين ما في العالم المحسوس كله" (ت ٤ ف ٦). هي إذن في وضع وسط بين العالمين الرّوحيّ والحسّيّ.

أقول:

إن رأي أفلاطون في اتحاد البدن والنفس العقلية ليس بصحيح:

إن أفلاطون وتابعيه زعموا أن النفس العقلية تتحد بالبدن ليس كصورة بالمادة، بل كمحرّك بالمتحرك، أو مثل "نوتي في السفينة"، فإن هذه العلاقة إنما هي وصل القدرة، وينتج أن الإنسان ليس بعد ببدن ونفس، بل إنما هو نفس تستعمل بدناً.

ولكن إن هذا مستحيل، لأن وصل النفس بمجرد القدرة لا يكفي أن تجعل البدن حياً على المستوى النباتي والإحساسي.

وأيضاً ما عدا الفعل العقلي، إنه توجد بعض الأفعال، كالغضب والإحساس، التي تجمع البدن والنفس، وهذا مستحيلاً إن لم يتحد الاثنان في جوهر واحد. أما أفلاطون فحاول أن يجيب أن هذين الفعلين ينتسبان إلى النفس كالمحرّكة وإلى البدن كالمتحرك، ولكن مشكلة إجابته أن الإحساس إنما هو حركة الحاس عن المحسوس، ولا عن النفس، فإن الحواس قوى انفعالية في أعضاء بدنية، تحتاج إلى الوحدة الجوهرية بين البدن والنفس.

"ويبدو لي أفضلَ الاعتقادُ بأنّك ما خلقت أيّ شرّ- وهو ما كنت في جهلي أتصوّره لا جوهرا فقط بل وجسمانيّا أيضا لعجزي عن تمثّل الرّوح إلاّ كجسم لطيف ينتشر مع ذلك في حيّز المكان- من الاعتقاد بفيض جوهر الشّرّ كما أتصوّره عنك"

على الرغم من قوله مرة إن النفس صورة للجسم ، فان أوغسطين يرى أن النفس منفصلة انفصالا تاما عن الجسم،حيث يقول:

"ليس في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب فيما يتعلّق بالجسم: فالنفس شيء والجسم غيره"[1]

ويقول:

"وألاحظ في تلك الوحدة وفي هذه الانقسامَ، كان يبدو لي أنّ تلك الوحدة جوهر النّفس العاقلة وطبيعة الحقّ والخير الأعظم"[2]

وأيضاً لو كانت النفس الفاعل في الإحساس، كما زعم أفلاطون، لكانت الحيوانات الغير ناطقة لها أيضاً فعل منفصل عن البدن، فإذاً هي أيضاً لبقيت حية بعد انحلال البدن. وأيضاً، بحسب هذا الرأي، لم تفترق الجثة جوهرياً عن البدن الحي. وأيضاً لم يكن الموت فساد أي جوهر، بل إنما افتراق جوهرين وهي مفترقان سابقاً. وأيضاً لو كانت النفس المفترقة حرة أن تحرك البدن أم لا متى شاءت، لكانت لها إمكانية الانفصال عن البدن والرجوع إليه متى شاءت.

ولكن النفس صورة البدن، لأنه بالنفس يوجد البدن ويحيى فعلاً. وأيضاً إن الوجود والفعل صاحبهما هو المركب.

فإنا نقول:

أن الإنسان صحيح بسبب البدن، وعالِم بسبب النفس، وحي وحاس بسبب الاثنين معاً.

فإن النفس الحاسة تنتسب إلى كل الجسد بالقياس أن قواها الإحساسية تنتسب إلى أعضاء مختلفة وهي فعلها، فإذاً إن النفس، وهي أيضاً حاسة، هي فعل البدن. أفلاطون، طيماوس٢٩، ترجمة جويت ج٣، ص٤٤٩-٤٦٨.

(١) أوغسطين، الاعترافات، ١٤/١٠.

(٢) تلتقي المسيحيّة بالأفلاطونيّة المحدثة في الاستعانة بوسيط بين الواحد والكثرة لكنّهما تختلفان في تساوي الأقانيم الثلاثة في الجوهر والرّتبة في الأولى والتدرّج الأنطولوجيّ في الثّانية: الأوّل فالعقل فالنّفس. ومفهوم "الكلمة" في أدب النّصارى مرادف "للوغوس" في الفلسفة اليونانيّة وهو مفهوم يعود إلى هرقليط ٥٧٦-٤٨٠ ق م الذي أطلقه على العقلانيّة المنبثّة في كلّ الكائنات، واستخدمه الرّواقيّون بمعنى العقل الكونيّ محرّك كلّ أجزاء العالم وشخّصه أفلوطين كعقل مفارق وسيط بين الله والعالم.أوغسطين الاعترافات ١٥/٤

وأرى أنه يذهب هنا إلى ما قاله ديكارت فيما بعد: من التأثير بين النفس والجسم غير ممكن، فالجسم لا يمكنه التأثير في النفس، كما أن النفس لا يمكنها أن تؤثر في الجسم ولذلك لابد أن نفترض وجود جوهر وسط، أو مادة وسط به يتم الاتصال بين النفس والجسم، حتى يمكن لكل واحد منهما أن يؤثر في الآخر والنفس عند أوغسطين تتخلل الجسم كله، مع انه حاول القول آن هناك مراكز للوظائف النفسية المختلفة، والقول أن الحركات توجد في وسط الدماغ.

يقول أوغسطين في مجال معرفة النفس:

" يريد أولئك أن يكونوا نورا لا في الربّ بل في أنفسهم، بظنّهم أنّ النّفس من ذات طبيعة الله وبذلك صاروا ظلمة أشدّ تلبّدا. ففي قحتهم القبيحة نأوا أكثر عنك أنت النّور الحقّ الّذي "ينير كلّ إنسان آت إلى هذا العالم.

"انتبهوا إلى ما تقولون واستحوا والتمسوه "واستنيروا ولا تخزّ وجوهكم".

من جهتي، لمّا رحت أشاور ذاتي في الانقطاع لخدمة الله كما اعتزمتُ منذ مدّة طويلة، كنتُ أنا الّذي أريد وأنا الّذي آبى، كنت كلا الشّخصين:

لا أريد تماما ولا آبى تماما، فأتنازع إذن مع ذاتي وأنقسم. وهذا الانقسام ذاته يحصل غصبا عنّي لا محالة، لكنّه لا يُظهر وجود روح أجنبيّة فيّ من طبيعة مغايرة، بل يُظهر عقابي.

ولم يكن بالتّالي يحصل بفعلي أنا، بل لأنّ "الخطيئة ساكنة فيّ" عقابا على خطيئة ارتُكبت بفعل أكثر حرّيّة، لأنّي من ذرّيّة آدم." (١)

وفي مجال علم النفس يعتبر أوغسطين أول عالم نفس في العصور الوسطى، وهو في هذا المجال يتحدث مثلا عن الذاكرة في كتابة الاعترافات، فيرى أن الشعور بالزمان ناتج عن الذاكرة، أن الشعور بالزمان يولد الانتباه أولا وهنا يتولد الشعور بالحاضر ثم تأتي الذاكرة ثانيا.

---

(١) ومثل أوغسطين جعل الغزاليّ معرفة النفس مقدّمة ووسيلة لمعرفة الله، لأنّ "من عرف نفسه فقد عرف ربّه وعرف صفاته وأفعاله" (المستصفى).
أمّا معرفة الذّات بالذّات فهي عنده مباشرة (معارج القدس).
أنظر الاعترافات، ١٠/٨.

فتولد لدينا الشعور بالحاضر، ثم يتبعه التوقع ثالثا وهو يولد شعورنا بالمستقبل.

ويقول أوغسطين في احتواء الذاكرة على انفعالات النفس

"تختزن ذاكرتي كذلك انفعالات نفسي لا بالنحو الذي تحملها به نفسي عند تأثرها بها، بل بآخر مختلف جدًا خاصّ بقوّة الذاكرة. إذ أتذكّر بدون فرح أنّي كنت فرحا وأستعيد بدون حزن ذكرى حزن ماض، وأذكر بدون خوف أنّي خفت مرّة وأسترجع بدون رغبة ذكرى رغبة ماضية.

بل قد أتذكّر بفرح حزني الماضي، وبحزن فرحي.

ليس في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب فيما يتعلق بالجسم: فالنفس شيء والجسم غيره[1]، ولا عجب بالتالي أن أتذكّر بهجة ألمي بجسمي في الماضي.

أمّا الفكر فهو عين الذاكرة، فإنّا حين نوصي أحدا بتذكّر أمر ما نقول: "ليبق هذا في فكرك"، ولمّا ننسى نقول:

"لم يخطر بفكري" أو "غاب عن فكري"، داعين بالتالي الذاكرة نفسها فكرا، وما دام الأمر كذلك، فلماذا حين أتذكّر فرحا حزني الماضي يحمل فكري فرحا وذاكرتي حزنا، فيفرح فكري بالفرح المنبثّ فيه، لكنّ ذاكرتي لا تحزن بالحزن المنبثّ فيها؟ أم أنّها غير متّصلة بالفكر؟ من يجرؤ على تأكيد ذلك؟ لا شكّ إذن أنّ الذاكرة بمثابة البطن للرّوح، والفرح والحزن بمثابة طعامين حلو ومرّ:

فلمّا يُسلّمان إلى الذاكرة كما تُمرّر الأطعمة إلى البطن يمكن تخزينهما هناك، لكن لا يمكن أن يحتفظا بطعميهما.

من السّخف لا شكّ التّفكير بأنّ هذه شبيهة بتلك، لكنّها ليست متباينة من جميع الوجوه.

---

(١) وليست النفس بجسد، لأنها صورة، وليست بمادة الشيء الحي.
وأيضاً لا يمكن جسدين أن يغلغل في بعضيهما، كما لو وقع لو كانت النفس جسداً.
وأيضاً لو كانت النفس جسداً لاحتاجت إلى نفس أو مبدأ آخر يوحدها بالجسد.
وأيضاً إن النفس تحرّك ولا تتحرك، ولكن الجسد لا يحرّك إلاّ متى يحرّك.
وأيضاً إن التعقل ليس بفعل الجسد، فإذاً لا يمكن النفس التعقلية أن تكون جسداً.

هانذا أستحضر أشياء من ذاكرتي لمّا أقول إنّ للنّفس أربعة انفعالات:

الرّغبة.

الفرح.

الخوف.

الحزن.

وكلّ ما يمكنني تفصيله بشأنها بتقسيم كلّ منها إلى فروعه وتعريفها، فهناك أجده ومن هناك أستخرجه، ومع ذلك لا أتأثر بأيّ من تلك الانفعالات وأنا أستعيدها على سبيل التّذكّر.

وكانت قبل استحضاري لها واستخراجها توجد هناك، ولذا أمكن استخراجها بالتّذكّر.

إذن قد يشبه استحضارها من قِبل الذّاكرة في عمليّة التّذكّر عمليّة استدعاء الطّعام من البطن لاجتراره.

فلم لا يحسّ من يشرحها أي من يتذكّرها بحلاوة الفرح أو مرارة الأسى؟ أم يختلف الأمر في ذلك لأنّ الشّبه غير تامّ؟ ومن سيقبل التّحدّث عن هذه الانفعالات إن لزم، كلما سمّينا الحزن أو الخوف، أن نحزن أو نخاف؟ مع ذلك ما كنّا لنتحدّث عنها لو لم نجد في ذاكرتنا، لا فقط جرس أسمائها حسب الصّور الّتي تطبعها حواسّ الجسم، بل كذلك مفاهيم تلك الأشياء ذاتها الّتي لم نتلقّها عبر أيّ من منافذ الجسد، بل عهدت بها إلى الذّاكرة النّفس التي أدركتها من خلال تجربة انفعالاتها، أو حفظتها الذّاكرة من تلقاء ذاتها دون أن يُعهد بها إليها[1].

ويرى أوغسطين كأفلاطون[2] من أن النفس تنقسم إلى:-

---

(١) أوغسطين ، الاعترافات، ١٠/١٤.

(٢) أننا لا نستطيع التسليم برأي أفلاطون في تقسيم النفس الإنسانية وإنما نرده قائلين: إن القوى النباتية والإحساسية والعقلية ليست بثلاث أنفس في الإنسان، كما زعم أفلاطون محاولاً أن يفلت من المشاكل التي وقع فيها إثر قوله بالمثل.
فإنه مستحيل أن تكون ثلاث أنفس، و إلا لكان عرضياً أن الإنسان هو حيوان أو حي.
- وأيضاً لكان ثلاثة جواهر ولا واحد.
فإن ما هو موضوع نباتي لكان زيدت له نفس حاسة ونفس عقلية زيادة عرضية.

عاقلة.

غضبية.

شهوية.

وهو يطلق عليها بالتوالي:

الوجود.

المعرفة.

الإرادة.

وفي تحليله للإرادة يدخل تحتها الشهوة والغبطة والخوف والإرادة عند أوغسطين حرة، وهو يحاول التوفيق بين حرية الإرادة وفعل الله الواحد.

فيرى أن الأفعال الإنسانية الحرة كانت في علم الله ومن ثم فإنها باعتبارها معلومة لله، قد وجدت في الفعل الإلهي الأول، وباعتبارها تصدر عن الإنسان باختيارة، تعتبر اختيارا حرا من الإنسان[1].

خلود النفس :-

يبرهن أوغسطين على خلود النفس بقوله إن الحقائق الأبدية لا يمكن إلا أن تكون أبدية، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فهذه الحقائق وثيقة الصلة بالنفس، فهي لا يمكن أن تنفصل عنها بأية حال.

وأيضاً لو كان الإنسان نفساً تستعمل البدن لكان يلزم أن أفلاطون يعين أي الأنفس الثلاث، ولو كانت النفس العقلية لكانت نفساً تستعمل حيوان، لأن البدن حي بنفس حاسة.

وأيضاً لو كان للإنسان بدن وعدة الأنفس للزم أن يوحدها شيء واحد، ولم يمكن أن يفعل هذا إلا نفس وحيدة وهي الصورة الجوهرية.

وأيضاً ينبغي أن يكون لكل نفس منفصلة موضوع خاص في البدن، كما يقول أفلاطون، فيضع النفس العقلية في الدماغ، والنفس الحاسة في القلب والنفس النباتية في الكبد، ولكن إن العقل ليس له آلة عضوية، وإن القوة النباتي توجد في جميع البدن، كما يتبين إذا انقسمت النبات.

وأخيراً إن أي عمل شديد، مثل التفكر أو الإحساس أو الهضم، يضعف سائر أفعال الشخص، وهذا يظهر وحدة الشخص التي تصدر عن مبدأ واحد، وهو النفس.

(١) هنري توماس، أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم، ترجمة متري أمين ، مراجعة وتقديم، زكي نجيب محمود، القاهرة ، دار النهضة العربية، ١٩٦٤م،ص١٧٣ بتصرف يسير.

يقول في الاعترافات:

"لولا إيماني باستمرار حياة الرّوح بعد الموت، والجزاء الأبديّ"[1]

وينتج عن هذا أن النفس أبدية، مثل أبدية الحقائق الموجودة بها، وهو في كتابه عن خلود النفس، يرى أن العقل لا يستطيع أن يعطينا اليقين الكامل في هذه المسألة.

وفيما يؤيد ما يقول في الاعترافات:

وما كان الله ليصنع لنا أبدا مثل تلك الأشياء العظيمة الرّائعة لو كانت حياة الرّوح تفنى هي أيضا بموت البدن[2] وكان أبيقور[3] سيفوز حتما بسعفة الانتصار في نظري لولا إيماني باستمرار

---

(١) أوغسطين، الاعترافات، ١٦/٦.

(٢) قياس بأن النعيم الأخروي لا حاجة إليه لو كانت الروح ستفنى مع البدن؛ لأن كل جوهر عقلي كذلك.

وأيضاً إن كمال النفس يوجد في الأفعال الغير جسمية، مثل العلم -وهو أكمل بالنسبة لتجرد معلومه عن المادة- والفضيلة، وهي تمنع النفس عن إتباع النزوات الجسدية، فمثل هذا الفعل يدل على طبيعة النفس.

وعلامة هذا هي أن الإنسان، وليس كالحيوانات الغير ناطقة، يفهم معنى الخلود، فإذا رغبته الطبيعية له لا يمكنها أن تكون باطلة.

وأيضاً إن التعقل هو فعل بأفكار معقولة عامة غير مادية، ويحصل بعمل العقل الفعال الذي يجعل هذه الأفكار معقولة وخالدة.

فإذا النفس عينها يجب أن تكون خالدة.

وأيضاً ليس للنفس ضد ولا تنغلق على الجسد لوجودها، وإذا تعب العقل هذا لم ينتج عن ضعفه بل عن ضعف الخيال والذاكرة والمتفكرة، فيحتاج العقل إلى هذه الحواس ليتصل بمعطياته.

فإذا نسمع ما يوسوس الرجيم كما جاء في الكتاب المقدس:

"إن مصير بني البشر هو مصير البهيمة و لهما مصير واحد: كما تموت هي يموت هو ولكليهما نفس واحد، فليس الإنسان أفضل من البهيمة لأن كل شيء باطل" (الجامعة ٣١٩).

وفي هذا يقول القرآن الكريم:

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) (سورة القصص ٢٨: ٣٩)..

(٣) أبيقور: ٣٤١-٢٧٠ ق م فيلسوف يونانيّ يؤكد مذهبه أنّ الآلهة لا يمكن أن يؤذوا البشر وأنّ خشيتهم المرتبطة بالخوف من الموت والعقاب الأخرويّ لا معقولة، ويبيح للإنسان أن ينشد اللذات لا كلها بل الطبيعيّة والضروريّة فقط، ويعتبر السّعادة غياب ألم الجسم وكدر الرّوح.

حياة الرّوح بعد الموت، والجزاء الأبدي[1]، وهو ما رفضه.

(١) نص صريح يقول : بأنه يؤمن بأبدية الروح وبقائها بعد فناء الجسد، ويترتب على هذا أن:الجواهر العقلية غير فاسدة، لأن الفساد هو الفرق بين الصورة والمادة، وهذه الجواهر ليست لها المادة.

وأيضاً إن الصورة مبدأ وجود الشيء، فإن الجوهر يمكنه أن يفقد وجوده بفقدان صورته، أما إذا كان الجوهر صورة قائمة بنفسها فلا يمكنه أن يفقد وجوده، فبالفساد لا يرجع الشيء إلى العدم بل إلى القوة، ولو رجع إلى القوة لكان جوهراً بلا وجود، وهذا مستحيل.

وأيضاً كما المادة الأولى هي غير فاسدة، كذلك الجواهر الغير مادية، لأن اثنينهما موضوعان أوليان في تركيب الموجود.

وأيضاً إن الجواهر العقلية لا تخضع للحركة وللأضداد التي تُفسد أشياء العالم المادي، لأن الأضداد يمكنها أن توجد معاً في العقل.

وأيضاً إن الفساد حد التغير الحسي والبلى، وهذان لا يحصل إلا للأجسام.

وأيضاً إن العقل لا يقيَّس للحواس التي تفسد إذا فسدت آلاتها أو إذا كان المحسوس بالغ القوة، كما ينتج العمى عن مشاهدة الشمس، فليس للعقل آلة، وبمقدار ما يعرف الأكبر يمكنه أن يعرف الأقل بأكثر سهولة.

وأيضاً إن المعقول هو كمال العقل ومطابق له، فإذا كان المعقول غير فاسد بنفسه، فإذاً وجب أن العقل يكون غير فاسد مثله.

وأيضاً إن لكل شيء ميل طبيعي يضاد الفساد اشتهاء البقاء، وإن الحيوانات تحس الوجود الحاضر وتقاوم الفساد، وحتى تحافظ بقاء نوعها بلا معرفة، أما الذين يفهمون معنى الخلود يشتهونه بطبيعتهم، وهذه الرغبة لا يمكنه أن تكون باطلة.

وأخيراً إن الأشياء ينعدم بنفس القوى التي أنشأتها.

أما الجواهر العقلية وُجدت عن الخلق المباشر، فإذاً قوة انفعالي للعدم ليست فيها بل إنما لله القوة الفاعلة ليُعدم الشيء، بل إنه لا يُفسد ما هو خاص للطبيعة، كما في الكتاب المقدس: "سبحوه يا جميع ملائكته... فإنه هو أمر فخُلقت، وأقامها إلى الدهر وإلى الأبد، سنّ سُنة لن تزول" (مزمور ١٤٨: ٢و٥-٦). وجاء في القرآن الكريم:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (سورة الزمر ٣٩: ٧٣-٧٥).

العالم عند آوغسطين من خلال الاعترافات

أولا : خلق جميع الأشياء مخلوقة لله تعالى:

يقول أوغسطين:

" فكيف لها بأن تكون بنحو ما لتتّخذ تلك الصّور المرنيّة والمنّسقة، وكيف لها أن تكون بنحو ما، لو لم تكن بك أنت الذي منك كلّ الأشياء قدر ما هي كائنة؟"[1]

ها هوذا الرجل يقرر أن الله تعالى خالق كل الأشياء، وهي صادرة بقدرته وأنها لا تستطيع أن تكون على أي نحو إلا بإرادة الله تعالى وقدرته.

ويواصل فيقول:

"لأنّ كلّ الأيسيّات خُلقتْ لا من جوهر الله بل من ليس، لأنّها ليست من ذات طبيعة الله وتتضمّن كلّها درجة ما من قابليّة التّغير[2]"

---

(١) أوغسطين، الاعترافات، ٧/١٢.
(٢) نفس المرجع، ١١/١٢.

وهنا يقول:

إن كل المخلوقات خلقت من ليس، وأنها ليست من جوهر الله تعالى، وليست صادرة عنه بالفيض بل بالخلق من ليس وفق قدرته وقدره تعالى.

يقول أوغسطين في شهادة السّماء والأرض على خلقهما: "ها هما السّماء والأرض. تهتفان أنهما خُلقتا، فهما تتحوّلان وتتغيّران.

لكنّ ما لم يُخلق وهو مع ذلك كائن ليس فيه ما لم يكن قبلُ فيه: فذاك تغيّر وتحوّل.

تهتفان كذلك أنهما ما خلقتا ذاتهما[1]:

"نحن كائنتان لأنا خُلقنا. لم نكن إذن قبل أن نكون لا يمكننا إيجاد ذاتنا".

الاعتراف هنا على لسان السماوات والأرض؛ لأنهما بالنسبة لخلق ما دونهن هن أعظم، وكذلك بالنسبة لنظر وعلم الإنسان المحدودين

---

(١) هنا يقول الرجل في صورة شهادة من السماوات والأرض:
إن الله علة وجود كل شيء، وهذا لأن كل ما يتضمنه الشيء وليس هو ذلك الشيء بعينه، إنما هو في ذلك الشيء بالاشتراك بالعلل الخارجية.
فإن نقاء أي صفة لا توجد في طبيعة واحدة ولا في مزاج طبائع مختلفة.
وإذا كان الوجود عاماً في كل شيء، فإن كل موجود أيما كان يجب أن يشتق وجوده مما ليس لوجوده علة.
وهذا يتبين أيضاً من تعاقب كون الأفراد وفسادها بينما نفس الطبيعة تبقى.
وهذا يشير أن وجود الأفراد يتوقف على علة خارجية يلزم أن يكون لها الوجود بالمستوى الأعلى وأن هذا الوجود يكون واجباً وكمالاً وفعلاً محضاً.
وأيضاً إن ترتيب العلل تطابق ترتيب المعلولات بالإلزام، لأن المعلولات تناسب العلل.
أما الوجود فإنه يعم كل شيء.
فبدأ وراء كل العلل علة فعلها الخاص هو أن تعطي الوجود، وهذه الله.
وأيضاً إن الله وحده عين وجوده، وكل ما سواه موجود بالاشتراك، فإن لسائر الموجودات وجود مخلوق مشترك في وجوده تعالى.
جاء في الكتاب المقدس:
"صانع السماوات والأرض والبحر وكل ما فيها" (مزمور ١٤٦: ٦).
وجاء في القرآن الكريم:
(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (سورة الأعراف ٧: ٥٤).

هن أكبر المرئيات والتركيز عليهن جاء مثله في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1]

وكلامهما عين وجودهما الجليّ.

أنت فعلا خلقتهما اللهمّ الذي أنت جميل فلذا هما جميلتان، الذي أنت حسن فلذا هما حسنتان والذي أنت كائن فلذا هما كائنتان.

لكن ليستا جميلتين ولا حسنتين ولا كائنتين مثلك أنت خالقهما[2]

إقرار من أوغسطين بأن المادة التي خلق الله -تعالى- منها السماوات والأرض من صنع الله -تعالى- ومخالفة له لأنها مخلوقة وحادثة بأمر الله القديم.

ويواصل الحديث عن كيفيّة خلقهما:

"لكن كيف خلقتَ السّماء والأرض؟

وبأيّة أداة أنجزت هذا العمل العظيم؟

ما فعلتَ كالإنسان الصّانع الذي يشكّل جسما من جسم بوحي فكره القادر على تشكيل أيّة صورة رآها في ذاته بعينه الباطنة؟[3]

---

(١) سورة فصلت، الآية، ١١.

(٢) أوغسطين، الاعترافات، ٤/١١.

(٣) وإن الخلق عمل مختص لله وحده، لأن الخلق هو الفعل الأول لا يفترض لأي فعل سابق، وإنما الفعل الأول يستوجب الفاعل الأول.

وأيضاً إن الله هو العلة العامة للجميع، ولكنه العلة الخاصة للوجود لأن الوجود هو المعلول العام في كل شيء.

أما الإيجاد فهو عين الخلق لأنه لا يفترض أي موجود سابق. وعليه إن إبداع الوجود يحتوي إبداع طبيعة الموجود أو ذاته.

وإنما الفعلة الخاصة لا تنشأ أي طبيعة كطبيعة (مثل "الكلبية") بل إنما أفراد ذلك الطبيعة (مثل هذا أو ذاك الكلب)، وهذا تفعل بكونها آلات الفاعل الأول.

وأيضاً إن كل فاعل طبيعي قادر أن يضاعف صفاته الخاصة أو الجنسية، ولكنه لا ينشأ وجود المفعول المباين لوجوده، بل يفترضه، وإنما إبداع وجود الشيء يختص به الخالق الذي فيه شبه كل شيء.

وأيضاً إن الفاعل الطبيعي إنما يختص بإنشاء صورة الشيء الجديد ولا وجوده إلا بالعرض، لأنه أنشأه من شيء سابق الوجود، وبهذا يباين حال الخالق.

ومن أين له بتلك القدرة لو لم تخلقه كذلك؟

ويضفي الصّورة، ليكون ما يقصد، على مادّة سابقة الوجود مستعدّة لتلقّيها، كطين أو صخر أو خشب أو ذهب أو أيّ نوع من الخامات.

ومن أين أتى كلّ ذلك لو لم تنشئه؟

أنت صنعت للصّانع الجسم والنّفس الّتي تسيّر أعضاءه، والمادّة الّتي يصنع منها شيئا ما والعقل الّذي يحذق به صنعته، ويرى بداخله ما سيصنع بالخارج، وأنت أنشأت حسّ الجسم الّذي بواسطته يسحب من نفسه على المادّة صورة الشّيء الّذي يصنع، ويبلّغ بما صنع الفكر، فيستفتي بباطنه الحقّ ليحكم هل أحسن صنعه. هذه الأشياء كلّها تسبّحك أنت خالق كلّ شيء[1].

لكن كيف تصنعها؟

فإذاً يستحيل للمخلوق، ولو كان ملكاً، أن يخلق شيئاً.

ولذلك وُرد الكتاب المقدس:

"في البدء خلق الله السماوات والأرض" (التكوين ١: ١).

وجاء في القرآن الكريم:

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (سورة الأنعام ٦: ١٠١).

(١) نلاحظ هنا في سؤاله عند القدرة يقرر:

إن قدرة الله تمتد إلى كل شيء.

وإن بعض الأشياء تلتزم أن تصدر مباشرة من الله، وبينها الملائكة الذين هم محض صور، وكذلك المادة الأولى كلها وفعل الوجود في كل شيء.

فهكذا تمتد قدرة الله إلى كل ما لا يتعذر وجوده، كدائرة مربعة. وإن قدرة الله الفاعلة تسع جميع نطاق القوة الانفعالية في الخلائق، أيما يمكنها أن تصبح.

فإذاً لا شيء يمكنه أن يحدد قدرته تعالى: لا عدم التصميم، لأنه العلة المثالية لكل شيء، ولا عظم الفعل، لأن خيره وكماله يفوقان كل شيء، ولا عدم القابلية في المادة، لأنه خالق المادة.

لذا نرفض رأي أفلوطين وابن سينا أن الله لا يمكنه أن يخلق إلا شيئا واحداً وهذا يخلق الباقي.

فإن الله يوصف بأنه على كل شيء قدير:

جاء في الكتاب المقدس:

"لك يا رب العظمة والجبروت والجلال والبهاء والمهارة، لأن لك كل ما في السماء والأرض، ولك الملك، أيها الرب" (الأخبار الأول ٢٩: ١١).

وجاء في القرآن الكريم:

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران ٣: ١٨٩).

كيف صنعتَ اللّهمّ السّماء والأرض؟

ما في السّماء والأرض قطعا صنعتَ السّماء والأرض، ولا في الهواء ولا الماء فهما تابعان للسّماء والأرض، كلاّ ولا في الكون خلقتَ الكون، فما كان يوجد قبل إيجاده الحيّزُ الّذي أوجِد فيه حتّى يكون[1]، وما كنتَ تمسك بيدك مادّة تصنع منها السّماء والأرض،

وإلاّ فمن أين أتتك تلك المادّة الّتي لم تصنعها ومنها تصنع شيئا؟ وأيّ شيء لا يستمدّ وجوده من وجودك؟

فإنّما "قلت فكان خلق"، وبكلمتك كوّنتَ كلّ الكائنات[2].

وعلى ضوء هذه النصوص أقول:

إن فكرة العالم عند أوغسطين ترتبط وثيقا بمشكلة الألوهية فالعالم مخلوق لله.

وهو ينظر للعالم نظرة تفاؤلية، والواقع أنه واقع تحت تأثير أفلاطون في محاوراته طماوس ونظريات الفيثاغورثيين السابقة، إذ أن العالم الأوغسطيني متناغم، وهذا الانسجام قائم على انتظام أجزائه وتناسبها، لأنه يقوم أصلا على قاعدة القياس والعدد و الصورة، فهو يقوم على القياس لأننا نقيس الأشياء، وعلى العدد لأننا نعد الأشياء، وطبيعة الأشياء ذاتها عند أوغسطين ترتد إلى تفرقة أرسطو بين الصور والمادة إلا أنه طوعها لمفاهيم.. أفلاطونية و أفلوطينية حديثة، فالهيولي، كما هي عند أفلاطون ليست شيئا إلا الصورة عارية عن الكم.

---

(١) يقول أوغسطين بأن الله أوجد كل شيء من العدم.

وبرغم أن تتكون أشياء العالم من مادة سابقة الوجود تحت صورة أخرى، فكل الوجود، باشتمال المادة، إن له الوجود من الله، فإن فعله لا يحتاج إلى مادة سابقة.

وهذا لأنه تعالى هو العلة العامة والعُليا للوجود نفسه، بينما سائر العلل تنحصر في معلول خاص، تنشأه بتحريك أشياء أخرى وتغييرها.

وأيضاً لأن الله كمال الفعل، إنه يسبق انفعالية المادة، فإذاً يمكنه أن ينشأ الشيء كله، بينما سائر العلل الفاعلة إنما هي جزئية، تنشأ الصورة من المادة السابقة.

فقد جاء في الكتاب المقدس:

"في البدء خلق الله السماوات والأرض" (التكوين ١: ١).

وفي القرآن الكريم:

(وإنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أيّامٍ) (سورة الأعراف ٧: ٥٤).

(٢) أوغسطين، الاعترافات، ٥/١١.

ومن ثم فإن فهم ماهية المادة يقوم على عملية تجريد الصورة، ومن هنا كان تصور المادة يقوم على السلب الخالص، حيث أن المادة سلب الصورة، ومن ناحية أخرى فقد تبنى أوغسطين فكرة الأفلاطونية المحدثة في التفرقة بين المادة الجسمانية والمادة الروحانية.

فالجسمانية:

خاصة بالكائنات غير الحية.

والروحانية:

خاصة بالكائنات الحية.

ورغم ذلك فأوغسطين يخالف رأي أفلاطون:

ولا يعتبر المادة عدما.

ولكن أوغسطين:

يعطى لها وجودا.

ويتركز هذا الوجود في قابلية المادة للصور ومن ثم صارت المادة مبدأ سلبيا للوجود، وليست بوجود واقعي حقيقي.

نشأة الأشياء عند أوغسطين:

أما نشأة الأشياء أو الموجودات فيرى أوغسطين أن لهذه النشأة مذهبين هما:

الأول: يرى أن العنصر المادي هو أصل الوجود.

الثاني: يرى أن الجوهر العقلي هو أصل الوجود.

وبالطبع أخذ أوغسطين بالمذهب الثاني لأنه إشراقي أفلاطوني، ومن ثم رأى أن علة الأشياء والوجود لابد أن تكون مبدأ عقليا، إذ يعود الوجود إلى علة عقلية مدبرة هي التي خلقت هيولي العالم على خلاف رأى أفلاطون الذي يرى أن الهيولي أزلية لم تخلق.

وهذا يعنى أن مادة العالم مخلوقة لله من العدم، ومن ثم فإن الوجود الإلهي الخالق يختلف اختلافا مطلقا عن الكائنات الغائية والهيولي، بأن وجود الله وجود بذاته.

أو هو بلغة فلاسفة الإسلام واجب الوجود بذاته.

بينما وجود الأشياء وجود عدمي.

أو هو بلغة فلاسفة الإسلام وجود ممكن، أو واجب الوجود بغيرة.

ومن ثم تختلف الأشياء في وجودها عن وجود الله خالقها.

والأشياء المخلوقة لله ليست ضرورية في ذاتها، اتساقا مع الدين المسيحي، ومن ثم كان الخلق راجع إلى خيرية الله، كما رأينا، كما يرجع أيضا إلى الإرادة الإلهية والعقل الإلهي وحسب.

ومن ثم تختلف كيفية وجود العالم عند أوغسطين عنها عند أفلاطون.

فبينما يرى أفلاطون:

أن وجود العالم وجود ضروري عند الآلهة بطريق الفيض والصدور.

إلا أن عند أوغسطين:

وجود العالم لم يوجد طبقا لحكم الضرورة القهرية، وإنما وجد لأن الله خير، ومن ثم كان ..... العالم موجود طبقا للإرادة الإلهية الحرة، فالله خلق العلم لأنه أراد ذلك، وإذا كان العالم منظم، كانت الإرادة الخالقة أرادة ذلك، وهي عاقلة بالضرورة، لان النظام المحكم لا يتولد إلا عن عقل منظم ومدبر؛ وهذا النظم والتدبير جاء نتيجة لحمة الله، وغايته التي ينشدها من الخلق وهو انه خلقها من اجل ذاته وحسب.

ويواصل أوغسطين الحديث عن الخلق والإيجاد والقدم والحدوث فيقول في الاعترافات:

"أليس ملؤهم بلىً هؤلاء القائلون لنا:

" ماذا كان الله يصنع قبل خلق السّماء والأرض ؟

إن كان عاطلاً ولا يعمل شيئاً، فلِم لم يبق كذلك إلى الأبد كما امتنع عن العمل منذ الأزل ؟

وإن ظهرت في الله أيّة حركة حادثة ومشيئة حادثة ليوجد الخليقة التي لم يوجدها من قبل فكيف تكون حقيقيّة أبديّته حيث تولد مشيئة لم توجد قبل ؟،

مشيئة الله غير مخلوقة بل هي كائنة قبل الخليقة إذ لا شيء يُخلق ما لم تسبقه مشيئة الخالق لذا إرادة الله من جوهره.

ولو نشأ شيء في جوهر الله لم يكن فيه قبلُ لما صحّ القول إنّ جوهره أبديّ.

وإن كانت إرادة الله صنع الخليقة قديمة فلِم لم تكن الخليقة هي أيضا قديمة ؟ ".

ويواصل أوغسطين الرد:

"هأنذا أجيب القائل:

"ماذا كان الله يفعل قبل أن يصنع السّماء والأرض؟" لا أجيب بما يروى أنّ أحدا ردّ به ساخرا ومتجنّبا عنت السّؤال، قائلا إنّه كان يُعدّ جهنّم للخائضين في هذا.

فشتّان ما بين بيان الحلّ، وتهزئة السّائل. كلاّ لا أجيبه بذلك.

فأحبُّ إليّ أن أجيب بجهلي ما أجهل، من الرّدّ بما يهزّأ به السّائل عن تلك الخفايا ويُمدح المجيب بالأغاليط.

لكن أقول إنّك إلهنا خالق كلّ الخلائق، وإن عنينا بالسّماء والأرض كلّ خلقك فبجرأة أقول:

"ما كان الله قبل صنع السّماء والأرض يصنع شيئا".

لو كان يصنع شيئا ماذا سوى الخلق كان يصنع؟ ألا ليتني أعلم كلّ ما أحبّ أن أعلم ممّا يفيدني، كعلمي أنّ لا خليقة كانت تُصنع قبل صنع الخلائق[1].

والواقع أن العالم عند أوغسطين خلق مرة واحدة دون استمرارية في خلق الأشياء، وهو يوقعنا هنا في مشكلة التوفيق بين فعل الخلق الواحد وبين نشأة الأشياء ووجودها.

لذا تجد هنا أوغسطين رواقيا إذ يأخذ بمذهبهم في العلل البذرية.

---

(١) أوغسطين، الاعترافات، ١٢/١١.

وتشتمل على:-

أولا:

أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال الدراسة والبحث.

ثانيا:

ثبت لأهم المراجع.

أهم النتائج

أولا: إن هيمنة الكنيسة على الحياة الفكرية والتعليمية في غرب أوربا في القرون الأولى المسيحية أدت إلى ترك العلوم التجريبية، لأن العقيدة المسيحية -كما قال المعاصرون- تقوم على أساس الإيمان الكنسي الذي كان من شأنه أن أعمى أنظارهم عن العالم الطبيعي المحيط بهم.

ثانيا: إن حكمة الكنيسة المسيحية هدت آباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا معه منعاً من قديم العادات والتقاليد والمعتقدات، بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط وتطويع ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها.

ثالثا: كانت حياة القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م) وهي أشد فترة منع فيها التفكير -إعمال العقل- خارج الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة؛ لذا جاء أوغسطين مسايرا لهذا المبدأ وأبدى دهشته من أن الناس يذهبون بتفكيرهم بعيداً للتأمل في ارتفاع الجبال أو دراسة مدارات الكواكب، ويهملون التأمل في ذاتهم أو في الآخرة، فبتأملهم في ذاتهم يهتدون إلى الحكمة من الخلق والإيجاد.

رابعا: أن شخصية القديس أوغسطين تعد أهم شخصيات عصر الآباء، لان فلسفته أثرت بعمق في الفلسفة المسيحية التي جاءت من بعده.

خامسا: وقع القديس والفيلسوف في ما وقع فيه رجال الكنيسة في القرون الوسطى من السقوط في الجهالات فبعد أن كان يعترف لله -تعالى- ليغفر له خطاياه جاء بفرية هي عقيدة الكنيسة في القرون الوسطى وهي:

مقدرة رجال الدين على مغفرة الذنوب وهي:

البدعة التي قامت عليها فيما بعد فكرة صكوك الغفران المدفوعة الثمن من المعترفين والممنوحة لهم من رجال الدين الكنسي والتي كانت سببا في تكون الفكر المتسلط لرجال الكنيسة.

سادسا: عناية أوغسطين بمشكلة المعرفة لم تكن عناية عقلية مجردة خالصة كما هو الحال عند اليونانيين، ولكنها كانت في المحمل الأول عناية وجودية لان مشكلة المعرفة عنده ارتبطت ارتباطا وثيقا بظروف حياته وتقلباتها.

وهكذا فالمعرفة عند أوغسطين تبدأ بالشك، ومبدأ الشك عند أوغسطين يبدأ من واقع أن الناس يختلفون في كل شيء من حياة وعلم وإرادة، إلا إنهم يتفقون في أنهم يشكون، ومن ثم له الشك حقيقة تحتوى على يقين لا ريب فيه، فانه يرتبط بحقائق أخرى كالحياة والعلم والإرادة....الخ

سابعا: تبين لنا من الدراسة أن أوغسطين يرفض تدخل العقل في فهم العقيدة ويرى أنها فوق العقل.

وهكذا كان رأى القديس أوغسطين وهو يواجه حملة أريوس على التثليث الكاثوليكي، وقال أن كل ما جاء في الأناجيل لا ينبغي للعقل أن يجادل فيه " لأن سلطانها أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشرى.

ثامنا: تناقض أوغسطين مع نفسه حيث اعترف قبل أن يكون كاهنا بأن: المسيح رجلاً وبالأخص لولادته من العذراء، " وهذا الاعتراف هو الاعتراف الصحيح والمطابق لبشرية المسيح وحقيقة خلقه

حيث يقول: لكنّي كنت أفكّر بنحو مختلف وأعدّ ربّي المسيح رجلاً فائق الحكمة لا يمكن أن يُعدل به أحد ويبدو لي خاصّةً أنّه بولادته من عذراء.

ولكن ما لبث الرجل أن وقع في الزلل وقال مناقضا لذاته: " لكنّي لم أعد في تلك الحماقة، بل تجاوزتها، وبشهادة الكون كلّه وجدتُك أنت خالقنا وكلمتك الذي هو إله عندك وإله واحد معك به خلقتَ كلّ شيء" الله هو الخالق لما دونه من أشياء وعوالم، ولكننا لم نر تميز بين الله الخالق وبين الإله عيسى وهذا ما يؤخذ على أوغسطين وكاثوليكيته.

تاسعا: الخطاب هنا واقع لله الرب الخالق فأين موقف الإله الكلمة التي يعترف أوغسطين أن الله خلق الخلق بواسطته، ويقرر حسب عقيدته أنه أيضاً إله عند أبيه، ولنسأل أوغسطين: كيف يكون الله واحد أحد بعد هذا الإقرار ؟، وكفى بها شهادة من رجل دين وفيلسوف مسيحي.

عاشرا: وأمّا عن حديثه عن النفس فيراها أنها جوهر لا مادي خالد والإنسان إنما يدرك ذاته عن طريق الفكرة، والذات موجودة ووجودها ليست عن طريق الذاكرة، فالذاكرة هي التي تؤكد لنا وجود جوهر مستقل هو الذات، وهو المركز والمصدر لكل مل يمر بالنفس من أحوال، ولما كانت النفس، جوهرا، فعن طريقها تكون المعرفة

الحادي عشر: يبرهن أوغسطين على خلود النفس بقوله إن الحقائق الأبدية لا يمكن إلا أن تكون أبدية، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فهذه الحقائق وثيقة الصلة بالنفس، فهي لا يمكن أن تنفصل عنها بأية حال.يقول في الاعترافات:" لولا إيماني باستمرار حياة الرّوح بعد الموت، والجزاء الأبديّ"

ثبت بأهم المراجع

تنويه:

آثرت أن يكون ثبت المراجع حسب ظهورها على صفحات البحث، مستثنيا الآتي:-

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: كتب الصحاح البخاري، ومسلم، وغيرهم.

ثالثا: كتب التفاسير.

رابعا: الكتاب المقدس.

خامسا: تفاسير الكتاب المقدس.

سادسا المعاجم بأنواعها: معجم البلدان معجم الفلاسفة الفهرست.

سابعا القواميس: قاموس الكتاب المقدس.

ثامنا الموسوعات:

موسوعة الحضارة المصرية، ألفه نخبة من العلماء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، الموزع: مكتبة مصر بالفجالة.

عاشرا المؤلفات:

عدنان المبارك: تأملات الأكويني، القومية العراقية للطباعة والنشر بدون تاريخ.

عبد الرحمن عبد الخالق: "الإلحاد" أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها.

هـ أ. ل. فيشر: تاريخ أوروبا، العصور الوسطى، نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة والسيد العريني، طبعة ٦، ١٩٧٦م، جمعية الحديث بالاشتراك مع دار المعارف المصرية.

د/ عبد الرحمن بدوي: فلسفة القرون الوسطى، القاهرة١٩٤٢.

د/ محمد حسانين: فلسفة العلم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

د/عدنان المبارك: القلق الإلهي مبعثه سر الواقع.

د/سليمان دنيا: مقدمة على التهافت، طبعة دار المعارف.

د/سفر بن عبد الرحمن: العلمانية نشأتها وتطورها، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٩م.

د/حسين مروه: النزاعات المادية في الفلسفة الإسلامية.

أفلاطون: المحاورات، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٢م.

د/حسن حنفي: نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط محاورة المعلم لأوغسطين، دار التنوير بيروت.

د/زكريا إبراهيم: اعترافات أوغسطين.

د/توفيق الطويل: قصة النزاع بين الدين والفلسفة.

مجدي مرجان : الله واحد أم ثالوث.

الشهرستانيّ : الملل والنّحل هامش الفصل لابن حزم الأندلسي، دار الحديث القاهرة، الطبعة الثانية.

عبد الرحمن الإيجي: المواقف، الموقف الخامس، شرح أحمد المهدي.

أتين جيلسون: روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، غرض وتعليق إمام عبد الفتاح،القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٩٧٤م.

هنري توماس: أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم، ترجمة متري أمين، مراجعة وتقديم، زكي نجيب محمود، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٤م.

هذا بخلاف المراجع الثانوية التي بين طيات البحث

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٤٣٢
تمهيد	٤٣٤
الفصل الأول	٤٣٧
حياته ونشأته	٤٣٧
الفصل الثاني	٤٤٢
تنسكه وعبادته	٤٤٢
تسبيحه وتعظيمه لله	٤٤٢
التنسك بالقدرة والعظمة	٤٤٨
الميل إلى الرهبنة	٤٤٩
بداية جلسات الاعتراف	٤٥٠
الاعتراف على أيدي البشر	٤٥٢
الفصل الثالث	٤٥٤
اكتشاف الفلسفة	٤٥٤
دراسة كتاب المقولات العشر	٤٥٧
بحثه عن الحقيقة واليقين	٤٦٠
اعتقاده في وجود جوهر للشر	٤٦٥
الفصل الرابع	٤٧٠
التأثر بالمانوية	٤٧٠
الاحتفاظ بالمانوية	٤٧٢
تخليه عن المانوية	٤٧٣

الفصل الخامس ٤٧٥
المبحث الأول ٤٧٦
براهين إثبات وجود الله ٤٧٦
المبحث الثاني ٤٨١
صفات الله عند أوغسطين ٤٨١
نفي تركيب الذات من أعضاء ٤٨٥
علم الله وحياته ٤٨٦
صفة البقاء ٤٨٧
الفصل السادس ٤٨٨
النفس عند أوغسطين ٤٨٨
صلة النفس بالجسم ٤٨٨
خلود النفس ٤٩٥
الفصل السابع ٤٩٨
العالم عند أوغسطين ٤٩٨
نشأة الأشياء عند أوغسطين ٥٠٣
الخاتمة ٥٠٦
أهم النتائج ٥٠٦
ثبت بأهم المراجع ٥٠٩
فهرس الموضوعات ٥١١